جورج كينان

الدبلوماسي المؤرخ

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزيز

الإخراج الفنى

محسنة عطية

جورج كينان

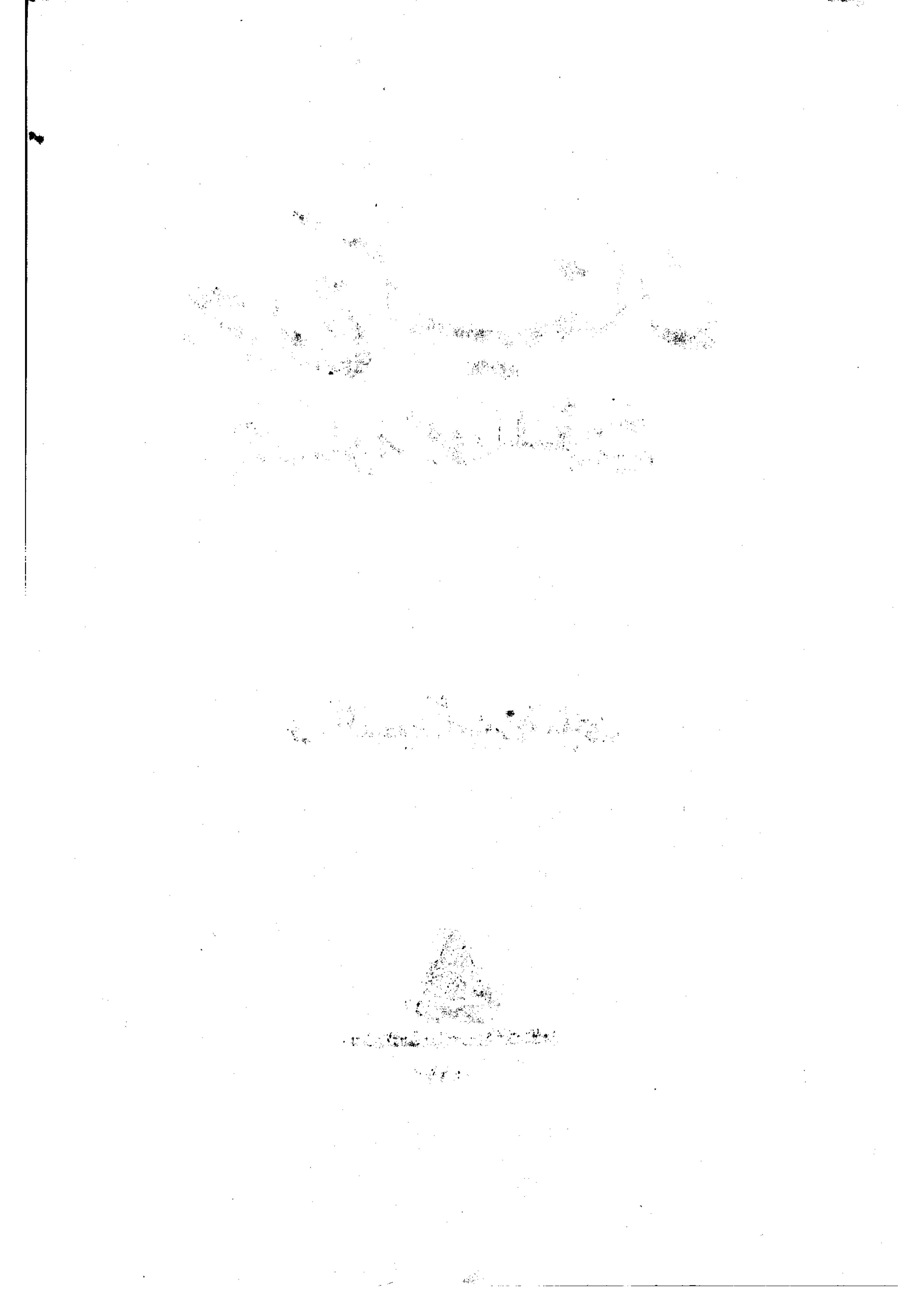
الدبلوماسى المؤرخ

د. السيد أمين شلبى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٧



فهـــرس

الموضوع	الصفحة
تقـــديم	٧
الفصل الأول	
مداخــــل	١٣
الفصل الثانى	
بين الدبلوماسية والحياة الأكاديمية	٢٨
الفصل الثالث	
ســحب الخطر	٩٩
الفصل الرابع	
جورج كينان ونقاده	١٤٣
قائمة بمؤلفات جورج كينان ومراجع الدراسة	١٥٣

تقــديم

تعرفت على جورج فروست كينان George F. Kennane (١٩٠٤ ـ) من خلال تاريخه الأكاديمي والدبلوماسي وأنا أعد لرسالتي للدكتوراه عن العلاقات الأمريكية السوفيتية وتطوراتها في أعقاب الحرب العالمية الثانية . فلا أظن أن أحدا يستطيع أن يحيط بهذا الموضوع دون أن يتوقف عند كينان ويقرأ له ، فهو واحد من أربع شخصيات دبلوماسية أمريكية كان من نصيبها أن تساهم في عملية بناء العلاقات الدبلوماسية السوفيتية الأمريكية منذ أن تأسست عام ١٩٣٣ وشهدت أحداث هذه العلاقات وتقلباتها ومفارقاتها منذ قيام التحالف ضد النازية وتفاعلات علاقات هذه الحرب ومساوماتها ، وتجاوزها ـ مؤقتا ـ الخلافات الكامنة في الأيديولوجية والمصالح والأهداف النهائية ، ثم بروز هذه الاختلافات الى السطح بعد انقضاء الحرب وظهور مرحلة الحرب الباردة بتقسيماتها وتوتراتها والأحداث التى ارتبطت بها وتسربها الى كافة مناطق العالم ، وبروز سباق التسلح بأبعاده ذات التدمير الشامل . وكانت الشخصيات التى تولت السفارة الأمريكية في موسكو منذ تأسيس العلاقات حتى أوائل الخمسينات هى : افريل هاريمان Avrel Harriman ، وتشارلز بوهلين Charles Bohlen ، ولويلين تومبسون Lewellyn Thompson ، ثم جورج كينان ، الذى تميز عنهم بعمله في موسكو في فترات سابقة ، فقد عمل كمترجم لأول سفير للولايات المتحدة في موسكو ، ثم عمل مستشارا وقائما بالأعمال عام ١٩٤٤ ثم سفيرا في عام ١٩٥٢ . وعلى الرغم من تميز الشخصيات الثلاث الأولى وبروز دورها في ادارة وتوجيه العلاقات الأمريكية السوفيتية في أدق مراحلها ، الا أن مساهمات كينان على المستوى الفكرى والدبلوماسى كانت أكثر تميزا بحكم القاعدة

العلمية والأكاديمية العريضة التي بناها لنفسه منذ تخرجه فى جامعة برنستون عام ١٩٢٥ والتحاقه بالسلك الدبلوماسى الأمريكي عام ١٩٢٦ واختياره أن يتدرب ويتخصص فى اللغة والشئون الروسية ، وهو التخصص الذى جعله على مدى ستين عاما ـ واحدا من أبرز المحللين للشئون الروسية ، وأشملهم رؤية واحاطة بأبعادها التاريخية والحضارية ، وأعمقهم فهما لدوافع السلوك الروسي والنظام الذى خلفته ثورة أكتوبر عام ١٩١٧ .

ومن المفارقات أن تكون هذه المعرفة العريضة والعميقة بالشئون الروسية من أسباب اختلافات كينان المستمرة مع صناع السياسة الخارجية الأمريكية سواء فى الادارة أم فى الكونجرس أو مع قوى اليمين المتطرف الذين كان كينان يرى فى تصورهم للواقع والدوافع والنوايا السوفيتية تصورا يتسم بالتبسيط الزائد والمبالغة وعدم تفهم لحقائق الواقع السوفيتى ومحدداته . وقد كانت هذه العلاقة بين كينان ومؤسسات صنع القرار الأمريكى وراء احساسه الدائم بالوحدة والغربة عن بيئته وكذلك بالاحباط الناجم عن عدم قدرته على التأثير فى توجيه سياسة بلاده بالشكل الذى يراه سليما ويتفق مع مصالحها القومية ومصالح الاستقرار فى العالم .

ولعل من المفارقات المرتبطة بشخصية كينان كذلك أن صورته لدى قطاعات من المتعلمين بل والمثقفين أنه منظر سياسة الحرب الباردة ، وأنه من خلال مقالته الشهيرة عن «مصادر السلوك السوفيتى « The Sources of Soviet Conduct » التى نشرها عام ١٩٤٧ ، قد صاغ مفهوم سياسة الاحتواء ، وأنه بهذه المقالة قدم الأساس النظرى والفلسفى لهذه السياسة التى تبنتها ادارة ترومان وبررت بها سياسة الأحلاف والقواعد العسكرية بهدف « احتواء » الاتحاد السوفيتى . غير أن قلة قليلة هى التى تابعت التطور الفكرى لجورج كينان منذ نشره لمقالته وعمله على تصحيح المفاهيم

الخاطئة التى ارتبطت بها وانتقاده التركيز على الصيغ العسكرية لمفهوم الاحتواء الى الحد الذى ذهب معه الى اعلان انكاره لبنوته لهذه النظرية ومحاولات تطبيقها فى سياق أصبح مختلفا عن السياق الذى ظهرت فيه ·

واتصالا بهذا الخط كرس كينان جهده الأكاديمى من خلال كتبه ومقالاته ومحاضراته ومقابلاته من أجل بث الوعى والادراك الموضوعى حول قضيتين رئيسيتين راهما تتصلان ليس فقط بالمصالح الأمريكية وبناء سياسة خارجية امريكية رشيدة وانما بسلام البشرية وبقائها ، ونعنى بهما، قضية الفهم الأمريكى لحقائق الواقع والنظام السوفيتى فى اطاره الصحيح وهو الخبرة التاريخية للشعب الروسى وسيطرة اعتبارات الأمن عليهم ، والتطور الذى لحق بنظام الحكم وشخصياته منذ وفاة ستالين ، والمشكلات الفعلية التى تواجههم وتفرض قيودا على سلوكهم أيا كانت الاعتبارات الأيديولوجية ·

أما القضية الثانية التى كرس لها كينان اهتمامه فهى قضية تصاعد سباق التسلح واكتسابه ابعادا خطرة نتيجة لتطوير أسلحة الدمار الشامل فركز على تبيان فساد الرأى الذى يعتمد على هذه الأسلحة فى بناء سياسة دفاعية ، وأبرز طابعها الانتحارى ، وما تولده من منافسة لا نهائية حيث كل سلاح جديد سوف يولد الرغبة فى تطوير سلاح آخر ، وقد رأى كينان هذا بوضوح منذ تفجير القنبلة الذرية فى نهاية الأربعينات حتى تطوير نظام الدفاع الاستراتيجى SDI فى منتصف الثمانينات، ومن هنا أيضا كانت دعوته المستمرة للقوتين الى تدمير ٥٠٪ من ترسانتهما النووية، وهو ما بدأت القوتان تتجهان اليه بشكل جاد بعد التطورات الأخيرة فى علاقاتهما ·

والواقع أن ما يجذب الدارس لحياة جورج كينان ليس فقط جانبه الأكاديمى والفكرى وغزارة انتاجه وعمقه

(صدر له ١٨ كتابا ، ١٦ مقدمة كتاب لمؤلفين آخرين ، ٧٧ مقالة ، ١٤ عرضا للكتب ، ١٥ بيانا أمام الكونجرس ، ٣٠ خطابا الى المحرر ، ٤٥ خطبة منشورة ، ١٨ مقابلة منشورة ، وأكثر من ٢٠٠ محاضرة لم تنشر ، يضاف الى هذا عدد لا يعد من المراسلات) وتطويره لمواقفه تجاه قضايا الحرب والسلام والاستقرار فى العالم ، وانما ثمة جانب آخر لا يقل جاذبية ونعنى به تاريخه فى العمل الدبلوماسى والنموذج الذى يقدمه فى هذا الحقل بشكل يجعل منه بحق صورة للدبلوماسى المتكامل فى تكوينه العلمى لذاته ، واحترامه لضميره المهني وتكرسه لمهنته ومتطلباتها حتى فى أصعب الظروف ، وولاءه لحكومته وبلاده حتى ولو اختلف مع مواقفها الرسمية .

وقد بدأ كينان هذا النهج منذ أن التحق بالخدمة الدبلوماسية عام ١٩٢٦ ، وقرر أن يعد نفسه ويكتسب أدواته العلمية والثقافية لمهنته الجديدة ، فحين أوفد فى منحة دراسية للدراسة وتعلم اللغة الروسية فى جمهوريات البلطيق اتجه اهتمامه للمستقبل حين ستقوم بين بلاده والاتحاد السوفيتي علاقات دبلوماسية ولذلك استغل وجوده فى هذا المكان الذى كان يمثل « ثقب الباب » على الاتحاد السوفيتى لكى يقرأ ويكتب عن الأوضاع الاقتصادية والسياسية للنظام السوفيتى ويبعث بها الى وزارته .

وحين عين في منصب متواضع ، كنائب قنصل فى هامبورج ، قد يكون بعيدا عن اهتماماته الثقافية والفكرية واظب ــ رغم ذلك ــ على حضور المحاضرات الثقافية العامة والاستيقاظ مبكرا لقراءاته الخاصة قبل أن يتوجه الى مكتبه ويمارس عمله القنصلى والاهتمام بشئون البواخر والبحارة الأمريكيين ومشكلاتهم .

وتعكس جوانب من حياة كينان الدبلوماسية ما قد يتعرض له الدبلوماسى من ظروف صعبة عليه أن يتحملها

ويؤديها بضمير مهني يقظ، فقد داهمت كينان وهو يعمل فى المفوضية الأمريكية فى براج مقدمات الحرب العالمية الثانية حين غزت القوات الألمانية تشيكوسلوفاكيا ودخلت المدينة ، ثم واجه اعلان الحرب بين بلاده وألمانيا النازية وهو فى برلين عام ١٩٤١ بكل ماتضمنه هذا من أعمال مترتبة على هذا الواقع تتصل بأعضاء بعثته وبالرعايا الأمريكيين بل وربما الأوربيين واجراءات ترحيلهم ·

وتحتوى حياة كينان الدبلوماسية أيضا على دروس بليغة فيما يتعلق بعلاقة الدبلوماسى بحكومته وما قد يتعرض له من احساس تجاهلها له ولتقاريره وتوصياته وتحوله الى « كاتب بلا جمهور » ، وهو موقف تشير فيه تجربة كينان الى وجوب آلا يفقد الدبلوماسى صبره أو يتخذ مواقف متسرعة ـ قد يندم عليها بعد ذلك ـ وأن لا يجعله شعوره هذا يكف عن آداء ما يراه واجبا وصوابا فى الوقت الذى يظل فيه على ولائه لحكومته وتنفيذه تعليماتها فى تعبيره ودفاعه عن سياستها الرسمية ·

وتشتمل هذه الدراسة على ثلاثة فصول وخاتمة · يتضمن الفصل الأول لمحات عامة عن حياة جورج كينان وفكره ، وهى لمحات تصور خليط المشاعر والأفكار التى تولدت عن ممارساته وتجاربه الدبلوماسية والأكاديمية ، ورؤيته لأوضاع مجتمعه والحضارة الأوربية المعاصرة ، اختلط فيها الاحباط بالشعور بالوحدة والغربة عن بيئته بل وعن العصر الذى قدر له آن يعيش فيه ، وبشكل عام فقد قصدنا بهذا الفصل تقديم الاطار الفكرى العام لشخصية كينان ·

ويحتوى الفصل الثانى على عرض مفصل لحياة كينان الدبلوماسية والأكاديمية وذلك من خلال سيرته الذاتية التى أخرجها فى جزءين تضمن الجزء الأول الفترة من ١٩٢٥ ـ ١٩٥٠ ، وغطى الجزء الثانى الفترة من ١٩٥٠ ـ ١٩٦٣ · والواقع آن هذه المذكرات ليست مجرد سيرة ذاتية لصاحبها

وانما هى أكثر من هذا : تاريخ للعلاقات الدولية كما تطورت منذ بداية الثلاثينات بأحداثها ومواجهاتها ، وهى على وجه أخص دراسة فى تطور وتفاعل العلاقات بين القوتين اللتين برزتا كأقوى قوتين على المسرح الدولى بعد الحرب الثانية وهى الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى ٠

ويواصل الفصل الثالث متابعة مواقف كينان ومساهماته منذ منتصف الخمسينات حول قضايا العلاقات الأمريكية السوفيتية وقضايا الحرب والسلام وأخطار سباق التسلح والحرب النووية ٠

كما يتضمن هذا الفصل اشارة الى لون آخر من المذكرات قام كينان بنشرها مؤخرا فقط ـ ١٩٨٩ ـ تضمنت يومياته الأدبية وتأملاته الفلسفية على مدى ستين عاما ، سجل فيها نظراته وانطباعاته حول الأماكن والطبيعة والبشر والمجتمعات التى عمل فيها وعاش بينها وزارها ٠

ثم تختتم هذه الدراسة بعرض لآراء النقاد فى مواقف كينان واتجاهاته حول القضايا المختلفة التى تعرض لها ومنطلقاته الفكرية بوجه عام خاصة بعد تصدع الاتحاد السوفيتي وانتهاء الحرب الباردة ـ كما نورد فى النهاية قائمة تتضمن مؤلفات كينان وكتاباته ، وكذلك عددا من المصادر التى اعتمدنا عليها ـ بالاضافة الى كتابات كينان نفسه ـ فى اعداد دراستنا ٠

وبعد ، فأرجو أن أكون قد وفقت فى تقديم هذه الشخصية الخصبة التى تمثل حياتها التاريخ الدبلوماسى لأكثر من ستين عاما ، كما تتضمن جوانب تستحق أن يتوقف عندها الدبلوماسى والمثقف المعاصر ويتأملها ٠

المعادى : ديسمبر ١٩٩٦ د ٠ السيد أمين شلبى

الفصل الأول

مداخـــــل

يستوقف النظر في مذكرات جورج كينان وكتاباته عن نفسه وعن أحداث العالم المفردات المتشابهة التي تعبر عن غضبه وضيقه من رؤيته للعالم المعاصر ، اذ يرى أنه يحكمه الجهل والحماقة وقصر النظر ، الأمر الذي نجده ينعكس في تعبيراته عن شعوره بالوحدة ، والعجز في مواجهـة هـذا العالم ، ولذلك تتكرر في مذكراته عبارات « ٠٠ مأخـوذ كلية ٠٠ وحيد للغاية ٠٠ يتملكني يأس أسـود ، مرعوب ، مبتلي بالوحدة » ، انه يشـعر بشـكل عميق بالكآبة ، فهـو معرض للهجوم والانتقاد ٠٠ لديه « توقع بالكارثة » ، كما يشعر بأنه « في وضع مستحيل بين عالمين » ، ويسيطر عليه احساس « بالمسئولية الضخمة ، وبعدم ملاءمتنا لها » ٠

فهل يعني هذا تشاؤم مؤرخ يبحث ويدرس الشـئون البشرية ؟ أو أنه يمثل مأزقا شخصيا لدبلوماسي مؤرخ قدمت له دراساته دليلا ومرشدا عريضا لما يجب عمله في مواقف محددة ولكن يعوقه عن ذلك وعن تحويل آرائه الى أفعـال وأعمال ما يسود الوضع الانساني من قصور ؟

ويجيب كينان نفسه على هذا التساؤل وبشـكل خاص حول احساسـه بالوحدة فيقول ان كلمـة « الوحدة » التي استعملها في مذكراته انما يعبر بها عن شعوره أثناء عمله بالسلك الدبلوماسي ، وهي تشير فقط الى الوحدة التي شعر

بها فى البيئة الحكومية عندما وجد أن وجهات نظره وأفكاره لا يجد لها صدى فى وزارة الخارجية ، وحتى اذا ما شاركه أحد أفكاره فهو لا يريد أن يعترف بذلك ٠٠ أما على المستوى الشخصى فهو لم يشعر أبدا بالوحدة ، فلديه أسرة وأطفال وأحفاد يشعرونه بالدفء ، ولديه أصدقاؤه ٠ على أنه على مستوى آخر ينظر الى نفسه كشخص وحيد فكريا ، فقد سار فى طريقه الخاص ولم يجذب اليه أتباعا كثيرين ، وان كان أصدقاؤه قد يعترضون على ذلك ويقولون انه قد حقق نجاحا ضخما كمحاضر وكاتب ، يقرأ كتبه مئات الألوف من الشباب فى الولايات المتحدة ويحترمونه ، وانه قد أثر فيهم بشكل عميق ٠ ويعقب كينان على هذا بأنه قد يكون فيه شىء من الحقيقة ومع هذا فهو لا يستطيع أن يرى أثرا لما كتب أو قال فى الصحافة الامريكية أو الجيل الناشىء ، فضلا عن الادارات الأمريكية المتتابعة حيث كانت تنظر اليه كشىء غريب وعلى أنه مزيج من الرجعى والليبرالى : وبهذا المعنى الفلسفى اعتبر كينان نفسه متفردا ووحيدا يشعر بالقلق والتشاؤم العميق ازاء ما يجرى فى الولايات المتحدة والحضارة الغربية الذى هو جزء منها ، الأمر الذى يمثل اتجاها فلسفيا وليس أسلوب حياة ، ففى نشاطه اليومى يجد نفسه يفعل أشياء يشعر أنها مفيدة ، وتعطيه قدرا من الرضى ، ومع هذا فانه لا يرى نتيجة لها « ٠٠ فأنا أفعل ما أفعله من باب الايمان أكثر من أى حسابات بأن ذلك قد يخدم غرضا أوسع » ٠

أما مصدر تشاؤم كينان فى رأى شراحه فانه يبدو فى تفكك النظام التقليدى الذى يرجع الى القرن الثامن عشر ، وهذا التفكك يبدو فى عملية التصنيع وتحول الريف الى مدن ، وفساد الطبيعة ، وانحدار الذوق ، والضحالة ، وضعف الدين كخبرة عامة ، ويستدلون على هذا من حديث كينان عن « عدم الراحة التى يشعر بها من وضعه كمعاصر للقرن العشرين » ٠

ويعقب كينان على هذه الملاحظة بأنه ، كغيره من الأمريكيين الذين ولدوا وتربوا قبل الحرب الأولى ، قد نشأ

على ثقة ما فى الحضارة الأمريكية ، واعتقد بأن التجربة الأمريكية تمثل تطورا ايجابيا فى تاريخ البشرية ، لأنه من الأمور الطيبة أن ظهرت الولايات المتحدة وتطورت بالشكل الذى تطورت به ، الا أنه الآن يرى أن « كل هذه الافتراضات وقد تشتتت ، ولا أعتقد أن حضارة الولايات المتحدة الأمريكية فى الأربعين والخمسين سنة الأخيرة كانت حضارة ناجحة ، ولا أعتقد أن نظامنا السياسى يلائم حاجات العصر الذى ننتقل اليه الآن ، كما أعتقد أن هذا البلد مقضى عليه بأن يواجه الاحباط الذى لا يمكن أن يكون الا تراجيديا وضخما فى نطاقه ، وبطبيعة الحال ليس من السهل أن تعيش مع هذا التوقع » • ويواصل كينان شعوره هذا حول الشئون الأمريكية بقوله : « •• ان الاحباط الذى أشعر به تجاه هذا البلد ـ الولايات المتحدة ـ لا يأتى مما تفعله شعوب أخرى ، وانما ما تفعله هى بنفسها ، الأمر الذى يبعث فى احساسا ضخما بالخزى » •

ويواصل كينان التعبير عن شعوره هذا بقوله : « كلما تقدمت فى السن وشغلت نفسى بتاريخ القرن الماضى فى أوربا والولايات المتحدة ، ازددت اقتناعا بأن الثورة الصناعية ذاتها كانت مصدر معظم الفشل والارتباك الذى أصاب العصر الحديث ، وهذا لا يعنى طبعا انكار التقدم التكنولوجى ، وانما كان لا يجب أن يسمح للثورة التكنولوجية بأن تتطور بشكل غير محكوم كما حدث ، وأن التقدم التكنولوجى كان يجب أن يفحص بعناية شديدة من وجهة نظر أثره على المجتمع ككل ، ولا أقصد بذلك أن أعيب على أجدادنا الذين أطلقوا الثورة العلمية والصناعية ، فقد كانوا جزءا من زمانهم وشاركوا فى تفاؤله العلمى ، ولم يتنبأوا بنتائج ما كانوا يفعلونه ، ولكن فقط أقول بأنى لا أستطيع أن أجد اجابة على مشكلات المدنية المعاصرة فى اطار مجتمعنا الصناعى المدنى القائم فى المدن » • فى هذا الاطار ينظر كينان الى نفسه كأحد أبناء القرن الثامن عشر ،

ويعتقد أن الأمريكيين القدامى الذين ترجع جذورهم الى هذا القرن لديهم قيم أكثر اقناعا ، وأذواق أفضل من هؤلاء الذين ترجع جذورهم الى مجتمع الثورة الصناعية ·

ويبدو العنصر الجمالي كأحد العناصر المسيطرة والموجهة في مزاج كينان الثقافي والفكري · فهو ثائر بشكل عميق على كل مظهر من مظاهر القبح والذوق السقيم وعدم احترام التقاليد ، وهو يدعو مرارا وتكرارا فى كتاباته إلى « الاعتراف بأنه اذا ما أردنا أن نرفع أعدادا ضخمة من الناس من الانحطاط والسوقية فانه من المهم أن نصنع من بينهم نماذج للذوق السليم والسماحة » ، بل ان بعض ناقديه يربطون بين الرقة التي وصف بها الطرق البسيطة لحياة الشعب الروسى وثنائه عليها وبين قوله ان « روسيا فى دمه » وان ثمة « رابطة سرية لا أستطيع أن أفسرها حتى لنفسى » تربط بينه وبين هذا الشعب ·

ويتساءل شراح كينان عما اذا كانت هذه الرابطة ذات علاقة بتطلع كينان الدائم وشغفه بالقرن الثامن عشر · ويؤمن (بتشديد وكسر الميم) كينان على هذا الاستنتاج بقوله انه لا يثق بأن البشر يمكن أن يعيشوا بنجاح بعيدا عن الطبيعة « فنحن في جزء منا حيوانات ، ومما يفيدنا أن نتذكر ما يربطنا بالأشياء النامية وبمملكة الحيوانات ، وأشعر بالأسف للأطفال الذين ينشأون بدون احساس بالألفة مع الكلاب والخيول والخنازير لأن الحياة على مقربة من الحيوانات تعلمنا أشياء حول أنفسنا ، فالرابطة الوثيقة مع الطبيعة تبدو لى من المصادر العظيمة للصحة البدنية ، وقد ينكر بعض الناس هذا ولكن حين أتحدث عن نفسى لا أستطيع الا أن أتطلع لهذا النوع من الحياة ، فأنا لست رجلا من رجال المدن ، ولا أثق في حياة المدن الكبيرة وخاصة من النوع المعاصر ، فهي بيئة ملوثة بشكل مخيف » · ويعبر كينان عن اعتقاده بأن المجتمع الزراعي مع كل أخطائه أكثر صحة واستقرارا في المبدي

الطويل من مجتمع المدن وأن البكارة العاطفية تفقد فى بيئة المدن ولهذا فان أفضل الأدب الحديث هو عن أناس جاءوا من بيئات ريفية ٠

ويلمس نقاد جورج كينان وشراحه تعاقبا بين ما يميز الحضارة والثقافة الأمريكية ـ من عدم تقدير لعنصر التراجيديا أو المأساة التي تشكل بشكل كبير جزءا أساسيا فى المأزق الانسانى ـ وعدم تفهم ما يترتب على هذا من الامكانات المحدودة للانجازات الاجتماعية والسياسية ، وتتناقض هذه الخلفية الثقافية لكينان كأمريكى مع ما يبدو فى كتاباته من تأكيد على عنصر المأساة الكامن فى الحياة الانسانية وعدم امكان التنبؤ بها ٠

ويفسر كينان هذا التعارض بأنه يمثل تجربة شخصية وكذلك أحد المعتقدات الدينية ، وفى رأيه أن معظم الضعف فى الفكر الماركسى ـ والذى تسرب الى وعى عدد كبير من المجتمعات الغربية دون أن تدرى ـ يكمن فى تصوره أن أمراض المجتمع يمكن أن تشفى باصلاح العلاقات الاجتماعية ٠ والخطأ هنا كما يرى كينان أن الماركسية لا تعطى أى أهمية ولا تعترف بعنصر المأساة الكامن فى صميم الخبرة الانسانية الفردية نفسها ، فليست هناك حياة انسانية تخلو من مأساة كمرض مفاجىء أو موت شخص نحبه ، أو عدم تحقق ما نحب ٠ ويذكر كينان فى هذا حديثا جرى بينه وبين زميله وصديقه تشارلز بوهلين حين كانا يعملان معا فى موسكو عام ١٩٣٧ حيث ذكر بوهلين « ان النظام الماركسي لن يدوم لأنه ليست لديه اجابة على ظاهرة الموت » ٠

ويفسر كينان شعوره بالاحباط حول شئون بلاده فيقول انه يعود فى كثير منه الى الافتراضات والأساليب التى تحاول بها بلاده معالجة مشكلاتها ، وان كان هذا لا يعنى عنده أن الفرد فى الولايات المتحدة أصبح فى حالة عقم وجمود فكرى وأنه لم يعد لديه شىء أو قيمة يتعلق بها ، فمنذ الحرب العالمية الأولى أنجبت الولايات المتحدة وسوف

تظل تنجب قلة مرموقة من الفنانين والمفكرين والكتاب ، وهو يرى فى هذه الخصوبة الفكرية التى بزغت ضد الفشل الاجتماعى ، يرى فيها تشابها مع التطور فى روسيا ، فالروس فى القرنين التاسع عشر والعشرين لم ينجحوا بشكل بارز فى حل مشكلاتهم كمجتمع مدنى ومع هذا أنتجوا خلال المائة والخمسين عاما ثقافة أدبية وموسيقية وفلسفية مرموقة ، وغالبا ما كان رواد هذه الثقافة غير سعداء فى بلادهم ، فقد كانوا فى غير المواقع التى تؤهلهم لها مواهبهم، وغير مقدرين ومن ثم ثائرين • وعلى هذا فان المجتمع الذى لم ينجح فى كل شىء شرع فى تحقيقه استطاع مع هذا أن يقدم أقلية غاية فى التأثير وثقافة تحتوى على بذور التطور فى المستقبل ، ومن هنا يجد كينان تشابها بين التجربة الروسية والأمريكية •

ويعقب كينان على ما قد يفهم من هذا ـ أن ثمة تلاقيا بين الثقافتين الروسية والأمريكية ـ بأن مزاج الحياة الثقافية الأمريكية يختلف بطبيعة الحال عن مثيله فى روسيا ، الا أنه من ناحية أخرى ثمة قرابة غريبة بين الشخصية الثقافية الأمريكية والروسية ، ففى رأيه أنه من السهولة بمكان على بعض الأمريكيين أن يفهموا الاتحاد السوفيتى أكثر من أبناء القارة الأوربية والانجليز ، والواقع أن هذا يثير تناقضا فى اتجاه كينان نحو روسيا ، فهو لا يخفى حبه للشعب الروسى ولغته وأدبه وحساسيته وطاقته على تحمل نوع متسام من المعاناة ، الا أن كينان فى نفس الوقت يدرك تماما أن التقاليد الروسية فى ادارة الشئون العامة وممارسة السياسة الخارجية وأهدافها تختلف تماما وربما لا تتصالح مع التقاليد الأمريكية •

ويقر كينان بهذا التناقض ويفسره بأن الواقع الروسى كله متناقض ، وأيضا بعض اتجاهاته نحو روسيا « حين تحدثت عن نوع من القرابة والألفة بين الشعبين لم أتصور هذا على أنه نوع من التفاهم الثقافى ، فهو أعمق من هذا ،

انه مسألة لفتات ، وطرق وأسلوب تعامل وتناول للمشكلات ، كذلك ثمة شيء لا أستطيع تحديده وهي القرابة التي تأتي من كونك مواطنا لبلد قارى واسع ، فثمة وحدة في الخبرة والتجربة وخاصة بين أهل سيبيريا وبين الأمريكيين من أصل سيبيرى .. فالأوربيون الغربيون الذين يعيشون في نطاق ظروف جغرافية وحضارية أكثر تحديدا قد تشكل سلوكهم في حدود أكثر ضيقا فهم مجتمع أكثر تنظيما من الأمريكيين والروس ، وهذا لا يخص النظام السياسي وانما السلوك الفردى على نطاق عريض ، فهنا ثمة لقاء تلقائي للعقول والأمزجة بين الأمريكيين والروس يجعل من السهل عليهم الالتقاء مع بعضهم البعض » .

ويحدد كينان وجه التشابه بين المجتمعين الأمريكي والروسي في هذه الرابطة الواضحة بين الحماس الذي يصل الى حد السذاجة Naive Earnestness والاخلاص المتطرف في أمريكا ــ وخاصة في الغرب الأوسط ، وان كانت تخف أكثر في كل من الساحل الغربي والشرقي ــ وبين الجدية الأخلاقية التي تميز روايات رجال مثل تولوستوى ودستويفسكي ، وهي رابطة لا تخطئها العين ، حقيقة ان مثقفي المدن الكبرى الأمريكية هم أقرب الى عقلية غرب أوربا ، ولكن قلب أمريكا متجه الى البحث عن الذات والبحث عن رسالته الأساسية بشكل يذكر بجوهر الرواية الروسية في القرن التاسع عشر .

★★★

من الأمور التي سينصرف اليها اهتمام كينان : تحليله ونقده لجوانب القصور في الحياة الاجتماعية والسياسية الأمريكية وادراكه لعناصر الضعف الكامن فيها ثم شعوره بالعجز ازاءها وعدم امكانه تصحيحها أو اجتذابه للرأى العام كي يساعده في ذلك ، وربما كان هذا هو مصدر الاحساس الذى لازمه بالاحباط والضيق والتشاؤم .

فهــو يرجع ما يعتبره التراجــع والتخلف المعنــوى والأخلاقى للمدنية الأمريكية الى سيطرة صناعة الاعلان على عملية الاتصالات ، الأمر الذى اعتبره شرا كبيرا ومأساويا لأنه يلوث المضمون الكلي للمعلومات التي تتدفق على المجتمع وتفسد وتسىء استخدام ذكاء المستمع والمشاهد وتحول انتباه الشعب عن الحقائق ، وحتى المناسبات الرياضية يراها تتحقق من أجــل الكسب المادى وتبدو بشكل أقرب الى المباريات بين العبيد التى كانت تجرى لامتاع الناس قرب نهاية الامبراطورية الرومانية ٠

كذلك نال النظام السياسى الداخلى فى الولايات المتحدة اهتمام كينان من زاوية آثاره على ممارسة السياسة الخارجية الأمريكية والقيود التى يفرضها عليها وعلى أهدافها القومية على المدى البعيد ، وهو يستخدم وقائع من خبرته السياسـية وتجربته الدبلوماسية لكي يدلل على الأضرار التى تلحقهـا طبيعة النظام الداخلى على أهداف السياسية الخارجية ، بحيث تبدو هذه السياسة غير متماسكة ، ومصــدر هــذا هــو أن الساســة المشرعين يخضــعون عمليــة السياســة الخارجيــة لأهدافهم السياسية الداخلية ، وان كان يعترف أن هذا من مرادفات الحــكم الديمقراطي ، هــو حــكم يــراه ضروريا لحكم أمريكا باتساعها الجغرافي وتنوعهــا ٠ ومادام الأمر كذلك ، ومع القيود التى يفرضها هذا الواقع على ما يجب أن تفعله فى حقــل السياســة الخارجيــة ، فان السياســة الأمريكية يجب أن تفعل ما فى وسعها لكى تتصرف على أساس من ضبط النفس ٠

غير أن كينان لا يريد أن يوحي هــذا بأنه يدعــو الى سياسة العزلة والتى لها معان غاية فى الخطــورة ، ولــكن ما يعنيه هو أن أمريكا يجب أن تتبع سياسةالاهتمام بشئونها الخاصة بالقدر الذى تستطيعه ، وان كان لا يقصد بهذا أن تهجر أمريكا فجأة التزاماتها وحلفاءها الأوربيين ، ولكنــه يشعر أن أمريكا يجب ألا تتحمــل التزامات جــديدة وأن

تخفض بشكل تدريجى التزاماتها القائمة وأن تبتعد عن التورطات البعيدة • ويفسر كينان دعوته تلك بأن أمريكا ليس لديها شيء تعلمه للعالم ، وان عليها أن تعترف أنها لا تملك الاجابة على مشكلات المجتمع الانسانى فى العصر الحديث ، بالاضافة الى أن لكل مجتمع صفاته الخاصة به والتى لا تستطيع أمريكا أن تفهمها جيدا • وما يود كينان أن يراه هو أن تحاول بلاده التأثير فى العالم اذا استطاعت بقوة النموذج والى المدى الذى ترغب فيه شعوب أخرى أن تأخذ به وأن تتبعه اذا وجدت أنها يمكن أن تطبقه على نفسها • ولكن كينان يرفض بشكل أكيد مفهوم عالمية التجربة الأمريكية ، فالخبرة القومية الأمريكية لم يشارك ولن يشارك فيها أى بلد فى المستقبل ، فهى خبرة فريدة لن تتكرر ، وهى لهذا غير قابلة للتطبيق على أى مجتمع آخر •

ولا يقتصر نقد كينان على جوانب الحياة الأمريكية وحدها ، وانما يشمل أيضا الحضارة الغربية عموما فى بلاد أوربا الغربية حيث يرى أنها قد أصبحت فى حالة ادمان لراحتها المادية ، وأصبحت تقدر بشكل كبير قيم الرفاهية والرخاء بدرجة تجعل من الصعب عليها بذل التضحيات اللازمة ، ويضرب كينان مثلا على ذلك بعجز بريطانيا عن تحسين انتاجها الصناعى أو بناء نظم النقابات العمالية على أسس حديثة ، وعجز بلدان مثل الدانمارك أو هولندا عن وضع حد لغزو المواد الجنسية التى سادت مجتمعاتهم ، ويجد فى هذا العجز افتقارا الى الثقة بالنفس واختلاطا فى القيم — وهذا يعنى فى رأى كينان أن التحدى الذى يواجه أوربا ضخم وشامل وأن الاستجابة له ضعيفة — بشكل يثير الشفقة — وربما غير قائمة •

★★★

حين يقارن كينان دوره كدبلوماسي بل كمستشار للرؤساء بدوره كمؤرخ يشعر بشكل كبير بالراحة بدوره

كمؤرخ يعيد بناء فترات وبيئات حضارية وسياسية أكثر ألفة له من الحاضر ، ولهذا فانه كان سيكون سعيدا لو كان قد تفرغ تماما كمؤرخ • وفي كل فترات الاحباط التي مرت به خلال عمله السياسي والدبلوماسي كان كينان يلجأ الى التاريخ « باعتباره الملاذ المشترك لهؤلاء الذين يجدون أنفسهم عاجزين أمام الحاضر » وهكذا كانت دوائر كينان ذات أبعاد أربعة : فهو يهجر العمل الحكومي الى التاريخ لعله يؤثر في الحاضر ، ولكنه كان يعود الى الماضي لأنه يرى زمنه قد أصبح مؤلما وغريبا بدرجة كبيرة •

الى جانب هذا الارتباط بالتاريخ كان كينان يتحدث بشغف عن اهتماماته الأدبية ، يبدو هذا فيما كتبه عن زيارته لبيت تولوستوى عام ١٩٥٢ والذى مزج فيه بين الأسف لما كان يتمناه وبين الاحساس بالواجب تجاه ما اختاره من عمل كدبلوماسي « لقد شعرت بالارتباط بعالم كنت أشعر باستمرار أنني حقيقة أنتمي اليه بجماع قلبي وطبيعتي أكثر مما أنتمي الى عالم السياسة والدبلوماسية الذى دفعني اليه القدر » •

ويمثل القدر بالنسبة لتجربة كينان احساسا عميقا بالرغم من الأخطار التى تنطوى عليها السياسة الدولية من خلال ما اختبره ومر به وعاشه من تجارب • فبعد عامين من تخرجه في جامعة برنستون كان يشاهد في هامبورج صراع جمهورية فيمار في ألمانيا في مواجهة ما خلفته الحرب العالمية الأولى • وبعد حقبتين عاد كينان الى نفس المسرح لكي يشهد « الخراب الشامل ، والتدمير الضخم اللامبالي للحياة المدنية وما بنته الأيدى البشرية بجهدها عبر القرون ، وهو ما جعل واضحا بالنسبة لى وبالنسبة لكل شخص أو فكر أن عالمي وعالم أطفالي في خطر حقيقي » •

وقد كانت الدروس التى استمدها من هذه التجربة عديدة ، وكان من بينها ما كان يمكن تسميته بنظرية النتائج

المتداعيـة للتـاريخ Snowball Theory والتى ترتكز على أن القضايا الكبيرة مثل السلام والحرب والازدهار والانحدار نادرا ما تقدم نفسها بهذه الصورة ، ولكنها تأتى متخفية فى الاختيارات اليومية للشعوب والحكومات ، وأنها نتيجة لهذا لا يخطط لها بشكل جيد بحيث « ان حدثا ما يؤدى الى الآخر ، وكل خطأ هو بمعني ما نتـاج كل الأخطاء ، التي وقعت من قبل ، وبحيث يصبح كل خطأ يقرر كل أخطار المسـتقبل ، وهكذا فان عملنا فى حقل السياسة الخارجية هـو عمـل تراكمى » •

★★★

بهذه النظرة للأحداث الانسانية لم يكن من الممكن على كينان أن يظل متباعدا ، فقد كان يطغى عليه الاحسـاس بأزمة الأمم ، كما كان بالغ الحساسية لعمل وتأثير التيارات العريضة والقوى الواسعة ، وأكثر من هذا كان متأكدا من أن تحليلاته هى من الدقة بحيث لا يمكن أن يحتفظ بهـا لنفسـه • وهـذا النمط الجاد من الناس الذى يسـميه الفرنسيون Serieux يشعر بشكل حقيقى بعبء ما يحمله من أفكار ونظرات ـ وهو ما ميز كل مراحل حيـاة كينان العملية ـ وكان يقع فى قلب هـذا الشـعور اعتقـاده بأن السياسة الخارجية الأمريكية وكذا المجتمع الأمريكى بوجه عام يعانيان من ثغرات مأساوية •

ورغم أن كينان قد استدرج الى الحياة العامة بدافع من ضميره الا أنه لم يشعر كمـا سـبق أن أشرنا بالراحة فى مجتمعه وزمنه ، وهو دائما يشبه هنرى آدمز « حيث يشـعر بالازدراء لكل شكل من أشكال القبح ، والذوق السقيم أو عدم احترام التقاليد » وهو شغوف بأن يشـبه دائما ببيرك وجيبون • وزيادة على هذا فهو يشعر بالالتزام لأن يقـدم نموذجا شخصيا للاعتدال والتهذيب ويقول : « اننى أشـعر بشكل عميق بأن الرحمة والكرم فى سلوكنا الشخصى وعدم

تصرف الانسان بشكل حيواني تجاه الآخرين حتى ولو عن طريق رد الفعل ، هي صفات أخلاقية وعملية الى أعلى مستوى » . ومثل هذا الاعتقاد ينشأ من كونه رجلا على خلق رفيع ، وهو منذ تقييمه للبشر ولمستوياتهم يشعر بشعور راسخ بالانتماء للصفوة ، في هذا يقول : « ان المرء يجب أن يميز بين الاستعدادات الفردية للبشر ، فهناك دائما أقلية صغيرة (ربما بين ١٥ ــ ١٠٪) تمتلك قيما ثقافية وحساسية أكثر من الجماهير العريضة في مجتمعهم ، وأنه من المهم جدا معرفة كيف تتصرف هذه الأقلية ، وبخلاف ذلك هناك جمهرة الناس (ربما ٧٠٪) الذين يشكلون السلوك العادى للبشرية بضعفها وقوتها ، وعلى الطرف البعيد ثمة أقلية من الأشرار » .

وكما سبق وأشرنا فانه يبدو أن كينان كان مقدرا عليه أن يعيش حياة الوحدة الثقافية والفكرية في معظم حياته الدبلوماسية ، وسوف نلاحظ هذا الاحساس بالوحدة في جزءى مذكراته وفي ذكرياته منذ أن تخرج والتحق بالعمل الدبلوماسى حتى رحيله الحزين من الخدمة الدبلوماسية عام ١٩٥٣ . وبعد تجربته الفاشلة وخروجه من موسكو شخصا غير مرغوب فيه ، قال عن نفسه وهو يغادر وزارة الخارجية الأمريكية للمرة الأخيرة : « بدا لى أنه من الطبيعى بعد أن أكمل المرء ٢٧ عاما من الخدمة في هذه المؤسسة أن أقول وداعا لشخص ما قبل أن أغادرها .. ونظرت حولى فلم أجد ابتداء أني قادر على أن أفكر في أحد » .

ويحق لنا أن نتساءل عما أدى بكينان الى هذا الطريق الموحش وهذا الشعور العميق بالوحدة والغربة عن بيئته ، وما هى الفجوة بين الأمل والواقع التى تركته على هذا النحو من القتامة ؟ . من أجل التوصل الى اجابة علينا أن نرجع الى فلسفة كينان . كتب والتر ليبمان مرة « ان فلسفة الانسان هى تاريخ حياته ، قد تقرأها في قصة صراعه مع الحياة »

أما مع كينان فان الأمر يختلف ؛ فهو يقول : « لم أقم بأى محاولة لتلخيص النظرة التى أدت الى هذه الخبرات المختلفة، ولكى أفعل هذا فانه يعنى الابتعاد كلية عن طابع ذكرياتى وأن أقوم ببحث أو دراسة عن فلسفتى •• وأعتقد أن جانبا من هذه الفلسفة سوف يتألق من خلال ما رويته عن الفترات الماضية » •

وبعبارة أخرى فان تاريخ حياة كينان ـ كما رواه فى مذكراته ـ هو فلسفته حيث رفض بثبات أن يعرض وجهات نظره بشكل منتظم ، رغم أنه فى أوقات قليلة قد ابتعد عن هـذا الخط فى اتجاه ما سماه « التعبير عما يمكن وصفه بفلسفة شخصية » •

على أية حال فاذا كنا قد أوردنا فى هذا الفصل ما انتاب كينان وعبر عنه فى فترات من حياته من احساس بالوحدة الفكرية وعدم الانجاز المهنى وافتقاده لما كان يتطلع اليه من أن يرى أفكاره ذات تأثير فى بيئته وفى سياسات بلاده ، فربما كان هذا الشعور له ما يبرره فيما قابل كينان من نهايات غير سعيدة فى منصبين رئيسيين تولاهما فى حياته الدبلوماسية : حين طلب منه أن يغادر موسكو كشخص غير مرغوب فيه فى أوائل الخمسينات حيث كان يشغل منصب السفير ، وحين اضطر هو أن يطلب انهاء مهمته كسفير فى بلاده فى يوغوسلافيا فى أوائل الستينات حين شعر أنه لا يستطيع أن يكون مفيدا فى منصبه ازاء تدخل الكونجرس الأمريكى بتشريعاته التى أضرت بعلاقات بلاده مع يوغوسلافيا • وعلى المستوى الفكرى فان وجهات نظره التى حاول بها أن يعلم ساسة بلاده ومؤسساتها كيف يفهمون على أساس عاقل الواقع والثقافة السياسية والتاريخية لروسيا وللنظام السوفيتى ومحدداته ودوافع تجاربه وكيف يتعاملون معها وخاصة فى ضوء أخطار العصر النووى ، لم تكن يصغى لها ، وفى فترات كثيرة كان يرى علاقات بلاده مع هـذه

القوة تصل الى حد المواجهة وسباق التسلح معها ، الأمر الذى يؤدى الى مستويات خطيرة ومهددة لبقاء البشرية رغم تحذيراته واقتراحاته لاحتواء هذا الخطر ·

★★★

على أن هذه الجوانب وان كانت تفسر مصدر شعوره بالاحباط والوحدة وعدم التقدير العملى لآرائه وأفكاره ، لابد أن يقابلها جوانب أخرى تمثل مالاقاه كينان من المؤسسات الفكرية والعلمية والأدبية والصحفية من تقدير واحترام ، فقد منحته جامعات اكسفورد وهارفارد وبرنستون وييل درجة الدكتوراه الفخرية ، كما نالت معظم كتبه جوائز محترمة مثل جائزة بوليتزر وجائزة الكتاب القومي ، وأنشأ معهد ودرو ويلسون مركزا باسمه للدراسات الروسية العليا : The Kennan Institute for Advanced Russian Studies. كنتيجة لجهوده فى هذا المجال ·

ومن المفارقات أن يصدر آخر تقدير يناله جورج كينان من المؤسسة التى ظل ينتقدها وينتقد تدخلها فى السياسة الخارجية الأمريكية وينتقد معها شخصياتها وأساسهم الثقافى والفكرى ، ونعني بذلك الكونجرس الأمريكى · فقد كان كينان في مقدمة من دعتهم لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ للتحدث عن العلاقات السوفيتية الأمريكية ومستقبلها بعد التحولات التى أتى بها جورباتشوف ، فى جلسة الاستماع الأول التى عقدت لهذا الغرض فى ٤ أبريل عام ١٩٨٩ قدم أحد أعضاء اللجنة (السيناتور جوزيف سايمون) كينان بقوله : «أود أن أعرب لك عن التقدير والاعجاب للجهود التى بذلتها طوال حياتك لبث العقل والقوة التى تأتى من العقل فى السياسة الخارجية الأمريكية ·· ان آراءك ووجهات نظرك لم يصغ لها دائما خلال الستين عاما السابقة ولكنك قد عبرت عنها بوضوح وبلاغة وبنظرة شاملة للتاريخ

وبالوضوح الذى كان القليلون قادرين على التعبير به • وقد فعلت هذا بغض النظر عما هو شائع وما كان يسود من أفكار سياسية ، وأعتقد أنك بذلك قد قدمت مساهمة ضخمة لأمتك ، وأحييك على هذا وعلى أنك كرست نفسك للخدمة العامة ومازلت تواصلها » •

ومثلما تلقى كينان مثل هذا التقدير فى آخريات أيامه فى بلاده ومن داخل مؤسسة هامة فى صنع سياستها ظل مختلفا معها ومنتقدا لدورها في توجيه السياسة الخارجية الأمريكية ، فقد صادف مثل هذا التقدير أيضا وفى مثل هذا الوقت المتأخر من عمره من الجانب الآخر الذى نظر اليه يوما نظرة عداء بل وخرج منه شخصا غير مرغوب فيه ونعنى به الاتحاد السوفيتى وقادته • ففى زيارة قام بها الزعيم السوفيتى جورباتشوف لواشنطون فى يونيو عام ١٩٨٧ التقى بكينان فى مناسبة اجتماعية ووجد جورباتشوف يفاجئه بقوله : « اننا فى بلادنا نعتقد أن الانسان يمكن أن يكون صديقا لبلد آخر ولكنه يظل فى نفس الوقت مواطنا مخلصا وعلى ولاء لبلده ، وهذه هى النظرة التى ننظر بها اليك » •

الفصل الثانى

بين الدبلوماسية والحياة الأكاديمية

التحق جورج كينان بجامعة برنستون عام ١٩٢١ وهى الجامعة التي ستكون ملجأه الأكاديمي حين تخذله حياته العملية فيما بعد • وكان التحاقه بها تحولا غير عادى فى حياته حيث كان قد بدأ حياته الدراسية في كلية سان جون العسكرية ، ويعزى كينان هذا التحول الى ما أحدثته فيه قراءته لرواية سكوت فيتزجيرالد « هذا الجانب من الجنة » فى بداية حياته الدراسية •

وكان وهو الفتى القادم من الغرب ، غير واثق من قدراته على التعامل والاقتراب من أبناء الشرق ، وهو الذى يتراوح سلوكه بين التباعد والتحفظ وبين الحماس المتدفق، كما تميز منذ البداية بصفة ظلت تلازمه طوال حياته حيث كان أبطأ وآخر من يدرك القواعد والشروط التى تحكم العمل فى أى مؤسسة •

ولا يذكر كينان أنه قد تكونت بينه وبين أستاذ له فى برنستون علاقة وثيقة خارج نطاق الفصل ، أو أن أحدا منهم قد ترك أثرا أيديولوجيا خاصا عليه ، ولكن كان هناك بالطبع من حمل وظل يحمل لهم احتراما عظيما لقدراتهم الثقافية وتكامل شخصياتهم ودخلوا بهذا المعنى فى نسيج وتكوين شخصيته • من هؤلاء كان Royman Soutage أستاذ التاريخ والدبلوماسية الأوربية والذى كان أسلوب الشك والتساؤل والابتعاد عن الوهم هو مدخله الى موضوعه ولكن دون أن يفقد المثابرة للبحث عن الحقيقة • وكان منهم

ايضا J. Green الذى كان يهدف بمقدمته التاريخية أن يقدم لتلاميذه فكرة عن أثر المناخ والجغرافيا والمواد الأولية على طابع المدنيات والحضارات البشرية •

وقد غادر كينان برنستون مغمورا وبلا ضجة كما دخلها ، بل إنه لم يشارك فى الاحتفالات النهائية التى تصاحب التخرج فيما عدا الاحتفال بتسلم شهادة التخرج النهائية وسارع بعدها الى الاختفاء • ويصف كينان شخصيته وتكوينه الثقافى فى هذه المرحلة بأنه كان شابا عاديا تهاجمه لحظات الضعف والمشاعر العادية فى حياة أى شاب وأنه كان حالما ضعيف الارادة وعلى شىء من الجبن فى العلاقات الشخصية • وحين غادر برنستون كان قد تلقى تعليما جيدا الا أن يقظته العلمية لم تكن قد اكتملت وان كانت برنستون قد أعدت عقله لمزيد من النمو •

وحين أنهى كينان دراسته قرر الالتحاق بالسلك الدبلوماسى الذى كان قد تأسس لتوه بشكل متكامل عام ١٩٢٤ بعد أن كان قائما فى صورة خدمة دبلوماسية وخدمة قنصلية • ويذكر كينان أن قرار الالتحاق بالسلك الدبلوماسى قد أملاه شعوره بأنه ليس هناك شىء آخر يفعله وأنه خلال سنواته النهائية فى الجامعة قد استمتع بدراسة السياسة الدولية وتقدم فيها ، فضلا عن أنه لم يكن يشعر بأن شيئا يجذبه فى موطنه الأصلى ميلواكى وخاف أن يستدرج الى وظيفة روتينية • وقد اعتبر كينان أن قراره هذا كان موفقا خاصة بالنسبة لشخص قليل الخبرة يفتقر الى المعرفة عن نفسه وعن العالم ، فلم يكن هناك مكان أفضل من الخدمة الدبلوماسية يقدم له نوعا من الحماية والرعاية والتدريب ، وكان ما أتاحته له الخدمة الدبلوماسية بالفعل من تعدد المشاهد والدوافع الثقافية الكثيرة والتأمل فى حياة شعوب أخرى وطريقة عمل حكوماتها ونظمها ، كل هذا ساعد فى توسيع آفاقه وهو الذى كان بطبعه خجولا بدرجة لا تسمح له بأن يلح أو يوجه أسئلة كثيرة •

أمضى كينان شهوره السبعة الأولى فى السلك الدبلوماسى ـ خريف عام ١٩٢٧ ـ وقد جنى بعض الخبرة فى العمل القنصلى ، وتمتع بالحياة فى جنيف مع أسرة عريقة ومارس التدريب اليومي على اللغة الفرنسية ، ومع نهاية الصيف غادر كينان الى أول منصب دائم له فى هامبورج ، وهنا أيضا لم يمكث كثيرا ، فقد كانت هامبورج وقتها أعظم ميناء فى القارة الأوربية وكانت فى الواقع مدينة الديمقراطيين الاشتراكيين وصاحبة أعظم خبرة فى الواقع فى تحقيق الاشتراكية الانسانية • وفى هامبورج وبخلاف أى مكان آخر ربما باستثناء برلين كانت المحنة المعنوية والفكرية لجمهورية فيمار تجرى يوميا كالدراما أمام البصر ، وكانت بالنسبة لكينان حقا شيئا مبهرا • وللمرة الأولى فى حياته أصبح مشغولا بالتفكير فى الأحداث خارج نطاق ذاته ، وبدأ يحضر المحاضرات المختارة التي كانت تعقدها بلدية المدينة ويستيقظ مبكرا فى الصباح لقراءاته الخارجية قبل أن يتوجه الى مكتبه ليمارس عمله كنائب قنصل معنى بالبواخر والبحارة الأمريكيين ورعاية شئونهم ، ولم يضيع فرصة للتواجد فى الميناء بل وأن يمضى يوما كاملا من الصباح حتى المساء فوق أحدى البواخر • وبالنسبة له ظلت ذكريات الشهور الستة التي قضاها فى هامبورج حية لا تمحى ، وكانت ذات أثر عميق على الصورة التي شكلها عن أوربا لما بعد الحرب العالمية الأولى • غير أن هذه الشهور أقنعته أنه قبل أى شيء آخر فأن عليه أن يستمر فى مواصلة تعليمه الرسمى والالتحاق ببعض الدراسات العليا ، ولهذا أعلن عن رغبته فى الاستقالة وأبحر عائدا الى واشنطون لاستكمال اجراءاتها ، وعند وصوله الى الخارجية الأمريكية ، قابل أحد شخصياتها وكانت هذه المقابلة تحولا لصالحه ، فقد التقى بأحد أساتذته فى المعهد الدبلوماسى الذي التحق به عند دخوله الخارجية والذى كان له بمثابة « الملاك الحارس » فقد أقنعه بأنه لا حاجة له للاستقالة لكى يواصل تعليمه وأنه اذا كان راغبا فى أن يتلقى تدريبا للتخصص فى احدى اللغات الصعبة مثل

الصينية أو اليابانية أو العربية أو الروسية فان بامكانه الحصول على فترة دراسية لمدة ثلاث سنوات في احدى الجامعات الأوربية دون أن يترك الخدمة الدبلوماسية على الاطلاق ·

وكان هذا تحولا حاسما فى حياة كينان حيث قرر أن يدرس اللغة الروسية ، وكان اختياره لها يرجع من ناحية الى أنه لم تكن هناك وقتها علاقات بين بلاده وروسيا وأنه كان من المنطق أن يفترض أن معرفته اللغة الروسية ستقدم له فرصة العمل فى روسيا حين تنشأ معها مثل هذه العلاقات ، ومن ناحية أخرى كانت فى ذهنه تقاليد أسرته حيث عاش أحد أجداده فى روسيا وكان معنيا بشئونها ، وبالفعل قبل طلبه لكى يتلقى تدريبا متخصصا فى الحقل الروسى وسافر بالفعل فى صيف عام ١٩٢٨ لكى يبدأ هذه الدراسة ·

★★★

مرت خمس سنوات ونصف منذ أن اختير كينان للتدريب والتخصص فى اللغة والشئون الروسية · وقد انقضت هذه السنوات اما فى برلين أو فى عواصم البلطيق تالين وريجا ، وكانت ذكرياته عن هذه الفترة من الصعب الكتابة عنها حين جلس يدون مذكراته ولم يذكر الا أنه خلالها قرأ كثيرا جدا كما كتب الكثير ، ولكنها كتابات كان معظمها عن رحلاته وانطباعاته عن هذا المكان أو ذاك ولكن جميعها كان لها أثر تعليمى عميق لا ينسى ·

وكان برنامجه لتعلم اللغة الروسية يقضى بأن يستمر لفترة من ١٢ ـ ١٨ شهرا تتبعها ثلاث سنوات دراسة جامعية عليا فى احدى الجامعات الأوربية · ولما لم تكن هناك علاقات بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة فان الحقل الذى كان سيتعلم فيه اللغة الروسية كان هو مدن البلطيق الثلاث : تالين ، ريجا ، كوتنو والتى كانت عواصم استونيا ،

ولاتفيا ، وليتوانيا ، والتى كان للولايات المتحدة مع حكوماتها تمثيل قنصلى ودبلوماسى ، وكانت هذه البلدان الثلاث حتى وقت قريب جزءا من الامبراطورية الروسية ، وعلى هذا فقد كانت الروسية لغة يتحدث بها فى العواصم الثلاث كما كان قدر من الحياة الثقافية الروسية مازال سائدا ٠

وقد بدأ كينان تدريبه فى تالين التى تقع على خليج فنلندا وعلى بعد ٦٠ ميلا من هلسنكى ، وعلى بعد مائتى وخمسين ميلا كانت تقع لينينجراد ٠ وكان المكتب القنصلى الأمريكى فى تالين لا يضم الا القنصل ـ الذى يحمل لقب سكرتير المفوضية وعلى هذا كان معتمدا لدى الحكومة الاستونية ـ ثم كينان الذى التحق للتدريب ٠ أما الوزير المفوض فقد كان معتمدا كرئيس للبعثة لدى الدول البلطيقية الثلاث ولكن مقر اقامته كان فى ريجا ، وكان يحضر من وقت لآخر كزائر لاستونيا وليتوانيا ٠

وفى بداية عام ١٩٢٩ نقل كينان للعمل فى المفوضية فى ريجا والتى كانت مدينة أكبر من تالين رغم أنها لم تعد كلية المركز المزدهر الذى كانت عليه قبل الثورة الروسية وان ظلت تحتفظ بما تميزت به من حياة ثقافية عالمية بما تحتويه من صحف ومسارح ولغات ألمانية وروسية ويهودية قديمة ، وتجمعات وطوائف مختلفة كالروم والكاثوليك والروس الأرثوذكس واليهود ، وكانت الديانة هى العلامة المميزة للقومية بحيث اذا سألت أحدا عن هويته فسوف يجيبك عن ديانته أكثر من أن يحدد انتماءه لدولة أو بلد معين ، كل هذا أعطى ريجا لقب « باريس البلطيق » ٠ وبالاضافة الى المتع الثقافية كانت لريجا حياتها الليلية القومية المستمدة فى كثير منها من تقاليد بترسبرج من حيث نواديها الليلية ومشروباتها بحيث كانت ريجا فى نواح كثيرة نسخة مصغرة من بترسبرج ، فاذا كانت بترسبرج القديمة قد ماتت بعد الثورة البولشفية فان ريجا ظلت حية وأصبحت

تمثل احدى الحالات التى عاشت فيها النخبة ، وهكذا أصبحت الحياة فى ريجا كأنك تعيش فى روسيا القيصرية أو هى المكان الوحيد الذى يذكر بذلك ٠

وقد شارك كينان فى حياته فى ريجا فى المفوضية زملاء غير متزوجين أيضا كانوا أذكياء وذوى نظرة نقدية ومحبين للجدل ، فى هذا الوقت كانت روسيا السوفيتية المجاورة تمور بأحداثها مثل طرد تروتسكى ونضال ستالين ضد المعارضة اليمينية وبداية سياسة المزارع الجماعية والخطة الخمسية الأولى ٠ كل هذا ظلل عالم البلطيق ومن يعيشون فيه وسيطر على مناقشاتهم وأفكارهم ٠ وفى عطلات نهاية الأسبوع كانت هذه المناقشات تتسع لتشمل قضايا روسيا الكبيرة : الماركسية والرأسمالية ومشكلات الفلاحين فيها ٠

وفى نهاية صيف عام ١٩٢٩ عاد كينان الى برلين لكى يبدأ مرحلة الدراسة الأكاديمية المكثفة فى الحقل الروسى ، والتحق بجامعة برلين للحصول على الدبلوم فيما كان يسمى Oriental وهو ما كان بسمارك قد أنشأه لتدريب الدبلوماسيين الألمان المبتدئين الذين سيخدمون فى الشرق ، وكانت الامتحانات فى هذا الدبلوم لا تقتصر فقط على اللغة الروسية وانما كانت تشتمل أيضا على التاريخ وخاصة الدستور القانونى والجغرافيا الاقتصادية لروسيا ٠ وكان المشرفون على كينان فى هذه الدراسة مجموعة من الروس المهاجرين وليسوا أساتذة منتظمين ، وكان كينان يجرى معهم مناقشات واسعة ويقرأ عليهم لساعات طويلة وبصوت عال من الأدب الروسى الكلاسيكى كوسيلة لاحكام السيطرة على مقاطع نطق اللغة ٠

ويقول كينان عن فترة حياته فى برلين انه ليس هناك الكثير الذى يمكن أن يقوله عنها الا أنه كان فى مرحلة من حياته لا يفكر فى شىء الا اتباع خيالاته وخيالات الشباب المشوشة ٠ وفى صيف عام ١٩٣١ وحين كانت فترته فى برلين تقترب من نهايتها تعرف كينان على فتاة نرويجية

كانت تعيش وتدرس في برلين مع أعمام انجليز لها ، وقد خطبها كينان وسافرت الى النرويج لكي تخبر اهلها ولكي يتزوجا هناك ..

وبعد اتمامه لدراسته عين كينان في القسم الروسي في المفوضية الأمريكية في ريجا وأمضى فيها الفترة من خريف عام ١٩٣١ حتى خريف عام ١٩٣٣ وكان هذا القسم وحدة بحوث صغيرة ، وحيث لم يكن للولايات المتحدة تمثيل في روسيا فقد كان هذا القسم يتسلم الدوريات السوفيتية الرئيسية ومطبوعات اخرى لدراستها وكتابة تقارير من خلالها الى الحكومة الامريكية حول الاوضاع الاقتصادية ، وهكذا كانت مهمة كينان الأساسية في هذا الوقت هي التقرير الاقتصادي وهو ما وجده شيئا مثيرا للاهتمام فأداه بحماس أصبح يشك بعدها أنه كان يثير ابتسامات زملائه اللامبالين في الخارجية الامريكية ، الا أن هذا مكنه من ان يطور معارفه عن الاقتصاد السوفيتي • وبوجه عام كانت فترة عمله في ريجا مواصلة لفترة دراسته فلم تكن تتضمن واجبات محددة أو مسئوليات نشطة ، ومع هذا فقد كان بشكل ما يساهم في صياغة سياسة أمريكية حين ستنظر الولايات المتحدة في اقامة علاقات مع الاتحاد السوفيتي ، ولادراكه لاقتراب ذلك عكف كينان على دراسة الاتفاقيات التجارية التي عقدتها روسيا السوفيتية مع الحكومات الأخرى في فترة عشر السنوات الماضية مركزا على ما قدمته هذه المعاهدات من حماية المصالح الأخرى ، ووضع نماذج هذه الدراسة في تقرير بعث به الى واشنطون في أبريل عام ١٩٣٣ ، وكان مما أسعده أن يكتشف فيما بعد أنها كانت ذات نفع في المفاوضات التي جرت في نوفمبر عام ١٩٣٣ مع وزير الخارجية السوفيتي ليتفينوف maxim Litvinov عند مناقشة اجراءات وشروط الاعتراف الأمريكي بالحكومة السوفيتية •

وقد أمضى جورج كينان السنوات التي أعقبت مباشرة اقامة علاقات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي في

موسكو ، وكانت هذه السنوات مثل سابقتها في ريجا وفي برلين استمرارا لتجربته التعليمية ، فقد توافق وجوده فى اجازة في واشنطن حين كانت تجري المفاوضات مع ليتفينوف واعلان الاعتراف بالاتحاد السوفيتي وبعد يومين من اتمام المفاوضات قدمه صديق له الى المستر William Bullit وقد غمره السفير الجديد بالأسئلة وتبين له انه يتحدث الروسية كما وجد لديه بعض الأجابات حول اسئلة كانت تدور فى ذهنه حول الاقتصاد السوفيتى ، وكانت النتيجة انه حين سافر الى موسكو لتقديم اوراق اعتماده اصطحب كينان معه كمساعد ومترجم له ٠

وعند اكتمال بقية أعضاء السفارة الأمريكية فى موسكو عمل كينان سكرتيرا فى البعثة الجديدة واستمر فيها حتى صيف عام ١٩٣٧ ، ويقول كينان ان الكلمات سوف لا تسعفه فى وصف مشاعر الاثارة والاستمتاع والانبهار والاحباط أيضا التى صاحبت هذه الخدمة ، كذلك يذكر مجموعة الأصدقاء الذين عرفهم وقتها سواء من أعضاء السفارة الأمريكية أو صحفيين امريكيين أو أعضاء فى سفارات غربية وخاصة الألمانية والفرنسية والايطالية ، وهم الأصدقاء الذين ظلوا أصدقاء طوال العمر ومعهم واصل خلال سنوات اقامته بموسكو ، بشكل مكثف ، المناقشات التى كانت قد بدأت فى ريجا حول الحياة والسياسة الروسية وأحداثها ٠ وفيما يتعلق به فلم تكن هناك من تجربة أشعلت ذهنه وزادت من دقة أحكامه حول مشكلة الشيوعية الروسية أكثر من هذه المناقشات اليومية واستكشافاتها ، غير أنه مع تعدد هؤلاء الأصدقاء فان كينان يذكر منهم اثنين : لوى هندرسون Loy Henderson زميله السابق فى مفوضية ريجا والذى رغم أنه لم يحصل على أى تدريب فى الحقل الروسى الا أنه بذكائه واخلاصه وشعوره بالمسئولية وضميره اليقظ نجح ليس فقط فى أدائه لواجباته وانما أيضا فى كل ما بذله

للتعامل مع المشكلات التى تنشأ بين بلاده وبين روسيا السوفيتية وبشكل ترك أثرا فى كل من ارتبط به ، وخلال فترات غياب السفير كان هندرسون يتولى القيام بأعمال السفارة وخلال ذلك كان يقدم النموذج بتكرسه لعمله وشجاعته الأدبية • وقد عمل هندرسون بعد انقضاء سنوات موسكو ١٩٣٤ ـ ١٩٣٨ رئيسا لقسم شرق أوربا فى الخارجية الأمريكية ورئيسا لقسم الشرق الأدنى ثم سفيرا فى العراق والهند • أما الشخصية الثانية التى يذكرها كينان فهو تشارلز بوهلين وكان زميله فى التدريب فى الشئون الروسية وكانا يعتبران الأوائل فى هذا المجال ، ويستعير كينان فى وصف صداقته مع بوهلين ماقاله بوخارين فى محاكمته « ان الصداقة الثقافية هى أقوى الروابط بين الرجال» • وكانت علاقة كينان ببوهلين فى سفارة موسكو فى الثلاثينات بداية صداقة فكرية ستستمر طوال العمر وتمثل بالنسبة لكينان على الأقل صداقة فريدة فى نطاقها ووقعها ، وقد ظلت السياسة الروسية والمسرح الروسى يمثلان الاهتمام الأساسى فى حياة بوهلين الدبلوماسية والعملية ، وبهذه الصفة عرف كمستشار ومترجم للرئيس روزفلت خلال الحرب العالمية الثانية ثم بعد هذا سفيرا فى الاتحاد السوفيتى وفرنسا • ويصف كينان صداقته مع بوهلين بأن الحياة قد جعلت منه ومن بوهلين أشقاء فى الفكر والثقافة وليست هناك صداقة تعنى بالنسبة له أكثر من هذا •

وكينان بعد مرور قرابة عام من بدء عمله وبدء العلاقات الرسمية بين واشنطون وموسكو ، يسجل ما سيعتبر تطورا أساسيا فى المسرح السياسى الداخلى فى الاتحاد السوفيتى والتاريخ الروسى الحديث والذى سيظلل الحياة الدبلوماسية فى موسكو وأداءها ، ففى ديسمبر عام ١٩٣٤ اغتيل سيرجى كيروف Sergei Kirov رئيس منظمة الحزب الشيوعى فى لينينجراد والذى كان واحدا من أقوى الشخصيات فى القيادة السوفيتية وكان ينظر اليه كخليفة محتمل لستالين ،

وقيل ان كيروف رغم تكتمه وتحفظه فى أن يأخذ أى موقف علنى من أسلوب ستالين فى الحكم وخاصة تجاه معارضيه ، الا أنه كان معروفا داخل القيادة أنه يعارض أسلوب ستالين فى الحكم ، ولهذا فقد بدأ يبدو وكأنه أمل هؤلاء الذين كانوا يتخوفون من أسلوب الرعب فى معالجة الخلافات داخل الحزب • ويصور حادث اغتيال كيروف على أنه بداية عمليات التطهير الشاملة التى تمت فى الثلاثينات والتى ظللت سماء روسيا ونشرت الخوف والشكوك والرعب والادانات غير المحققة التى استمرت ربما حتى وفاة ستالين عام ١٩٥٣ • غير أنه مع هذه الظروف السياسية التى عاقت الأداء غير المريح بل والأليم للعمل الدبلوماسى فقد كان فيما يتذكر كينان ثمة مجالات أخرى للتعرف والارتباط بالحياة الروسية ، كان هناك المسرح والأحداث الرياضية والمناسبات العامة من كل نوع التى كان يمكن فيها الاختلاط بالانسان الروسى العادى خاصة اذا كان المرء يتحدث الروسية حيث كان من الممكن أن يستوعب قدرا أكبر مما كان يدور ، ثم كان هناك السفر والتنقل الى لينتجراد والجنوب والقوقاز ورحلات عبر نهر موسكو ، وبالنسبة لمن يعشقون تشيكوف فقد كان من الممكن زيارة الأماكن التى عاش فيها ، كذلك هناك الرحلات الى الريف لاكتشاف ما آلت اليه بعض كنائس العصور الوسطى الجميلة •

وحين ينظر كينان الى هذه الأيام فى موسكو فى منتصف الثلاثينات فانه يعتبر أن ما اكتسبه فيها هو الشعور بروسيا الجديدة كما بزغت من محن المزارع الجماعية وخطة السنوات الخمس الأولى وعمليات التطهير • غير أن كينان اعتبر أن أوجه النقص الكبيرة بالنسبة له هى فى قلة معرفته بتاريخ الحركة الدستورية الروسية ، الأمر الذى لم يكن من الممكن عدم الالمام به ، فالأعمال العظيمة لـ ا • هـ • كار E. H. Carr وليونارد شابيرو Leonard Shapiro وايزاك دويتشر Isaac Deutscher وفرانكو فينتورى Franco Venturi لم تكن متاحة بعد ولم يكن لدى أحد الفراغ لاجراء البحوث التى

أجراها هؤلاء الدارسون العظام فيما بعد ، ولكن حتى بدون هذه المعرفة فقد أدرك كينان أن أحدا لم يكن ليعيش فى روسيا فى هذه الفترة ويعمل بالسياسة دون أن يكون لديه أساس سليم حول طبيعة الستالينية ٠

ومن الملاحظات التى يسجلها كينـان عن نفسه وعن اتجاهاته فى هذه الفترة عن عمله فى موسكو من ١٩٣٣ ـ ١٩٣٧ أنه لم يكن لديه أساسا تعاطف نحو التجربة السوفيتية كمـا حـدث لبعض الذين راقبوا تجربة الحـكم والسـلطة السوفيتية فى سنواتها الاولى ، لذلك لم يكن مقته لنظام حكم ستالين نتيجة لتبـدد وهم قائم ، فهـو لم يمـر « بالفترة الماركسية » التي مر بها البعض ، وفي بعض الأحيـان كان كينان يظن أنه ربما كان من الأفضل لاتجاهاته لو كان قد مر بمثل هذه الفترة ٠

فى هذه المرحلة من عمله يذكر كينـان من اهتماماته وكتاباته الشخصية والدراسية عملين : الأول هو ما أسماه «مشكلة الحرب بالنسبة للاتحاد السوفيتي» ٠ في هذه الورقة حاول كينان أن يصور رؤية الحـكم السـوفيتى للحكومات الأجنبية ونظرة الشك والترقب بل وربما العداء لها ، ثم يرصد جهود الحكم السوفيتي نحو التسلح ، الأمر الذى كان يطغى على سياسات رئيسية فى الزراعة الجماعيـة وخطـة السنوات الخمس الأولى ، ثم تنـاول كينـان روح التعصب القومى والعداء نحو ما هو أجنبي والشك فيه ، غير أنه قد صاحب هذه السياسة عدم الاستعداد لأى شـكل من أشـكال العداء المسلح ، الأمر الذى جعل ستالين يعقد اتفاقيات عدم الاعتداء مع دول مختلفة ، ووطد عضويته بعصبة الأمم ٠ وقد فسر كينان هذه الاتجاهات على أنها لا تعكس الرغبـة فى تفادي الحرب ونشـوب حرب عالمية أخـرى أكثر منهـا الرغبة فى أن يحارب الآخرون بعضهم البعض ٠ أما الدراسة الثانية فقد كانت تدور حول المستقبل البعيد المدى للعلاقات الأمريكية السوفيتية ، وحاول فيها أن ينظر الى ما أبعد من عهد ستالين وما يمكن توقعه من تطور العلاقات الثنائيـة بين

البلدين • فى هذه الدراسة أخذ كينان في الاعتبار بعض أوجه التشابه بين البلدين : التشابه في موقع البلدين نحو شواطىء الباسفيك في القرن التاسع عشر، وخبرتهم المشتركة لتوسيع جذورهم الى مناطق غير نامية ، والغاء العبودية فيهما فى وقت واحد ، والتشابه فى تقدمهم الصناعي الحديث • وحقيقة أنه فى كلتا الحالتين فان التقاليد الأدبيـة هي فى الأساس تقاليد القرن التاسع عشر والتي تأثرت بآوربا وان كانت لم تستسلم لها • الى جانب أوجه التشابه هـذه رصد كينان عناصر الخصـومة بين البلدين وخاصـة فى المجـال الاقتصادى والميل العام للحـكم الروسى الى تفضـيل ابقـاء شعبهم فى الظـلام اكثر من المخـاطرة بتعريضهم للثقـافة والأفكار الأجنبية • وسياسيا عاد كينان الى التاريخ الروسى لـكى يتعقب أصـول المشـكلة التقليدية وعـدم الثقة لدى الحكام الروس ، كمـا كان عليـه أن يزن أثر المنـاخ على الشخصية الروسية ونتـاج الاتصال لمـدة قرن مع القبائل الأسيوية والطابع الجغرافى للبلد وهو الطابع غـير المـلائم للسيطرة الادارية والوحدة الوطنية والثقة بالنفس • وقد دفعته نتائج هذه الدراسة الى الشك فى أن مستقبلا مبشرا ينتظر العلاقات الأمريكية الروسـية وان كان لم ييأس من امكانية ايجاد قدر محدود من التعـاون بين البلدين الا أنه اقتنع أنه حتي لتحقيق هذا القدر من التعاون وبشكل فعال فان هذا يتطلب أن يتولى هذه العلاقة على الجـانب الأمريكى رجال لديهم الفهم والمؤهلات اللازمة لهذه المهمة ، موهبة انكار النفس والخلفية الثقافية الجيدة والتواضـع الثقافى تجـاه تعقد العالم الروسى وفوق كل هذا طاقة غير عادية من الصبر، وانتهى كينان الى أنه ان لم يوجـد مثـل هـذا النمط من رجال لديهم الفهم والمؤهلات اللازمة لهذه المهمة ، موهبة انكار من سلسلة طويلة من سوء الفهم وخيبة الأمل وتبادل الاتهامات بين الجانبين •

وتحدث كينان عن أول سفير أمريكي في موسكو وهـو W. Bullit فيقول انه رغم حقيقة أن اى سفير فى الخارج لا يتعرض للنظرات الفاحصة والناقدة بأكثر مما يتعرض من زملائه المتحفظين ــ وان أظهروا الاحترام من الخارج ــ الا أنه وزملاءه في السفارة لم يحدث أن شعروا مرة بالخجل منه ، غير أن أعظم نقاط ضعفه كدبلوماسى هو عدم الصبر ، فقد أتى الى روسـيا بآمال عاليـة وأراد أن يراها تتحقق مـرة واحدة ، ولم تكن هذه الآمال نتيجة تعاطف آيديولوجى مـع النظام السوفيتى وانما كانت تعكس أكثر من هذا درجة من التفاؤل حول القادة السوفييت ٠ وقد كانت للسـفير تجربته مع لينين حين أتى الى روسيا في فبراير عام ١٩١٩ خـلال مؤتمر باريس للسلام وبالموافقة الضمنية للرئيس ولسـون ورئيس الوزراء لويد جـورج ، وقد اجتمع مع لينين وقادة سوفييت آخرين وقتئـذ وعاد باقتراحات سـوفيتية لم تكن مثالية ولكنها كانت تقدم أفضل فرصة ملائمة للقوى الغربية لكى تنسحب من التدخل العسكرى فى روسيا بشكل مشرف ولخلق علاقة مقبولة مع النظام السوفيتى ، الا أنه بعـد عودته عومل بشكل غير منصف من جانب ولسـون ولـويد جورج ، فقد تجاهلا مقترحاته وأنكرا أى مسئولية صريحة أو ضمنية عن رحلته ، الأمر الذى دفعـه لأن يستقيل من الوفد الأمريكي لدى المؤتمر ٠ وحين عاد الى موسكو كسفير عام ١٩٣٣ كان يأمل أن أسلوب روزفلت المتحرر من ميراث الجمهوريين خلال السـنوات الاثنتى عشرة الماضية سـوف يصحح الى حد ما أخطاء هذه الأيام الأولى ، وأن هذا سـوف يحدث استجابة طيبة من الجانب السوفيتى ، غير أن كل هذه الآمال قد أحبطت ، فقد واجه بوليت فى موسكو أيام ستالين وليس لينين ، الأمر الذى ملأه بالمرارة بل جعله يتحـول الى المناداة بخط متشدد تجاه موسكو ، ولكن روزفلت الذى كان يبدى اهتماما قليلا بالقضايا المحددة لم يكن لديه استعداد لمثل هذا الخط ، ولم يتجاهل روزفلت هذا الخط فحسب ، بل اعتبر أن مجرد التوصية به يعـكس نظرة من جانب بوليت

حول العلاقات الأمريكية السوفيتية لا تتفق مع الاتجاه العام لسياسته ولهذا سرعان ما نحاه كمستشار له للشئون الروسية بل ووضع اللوم فى تدهور العلاقات بين البلدين على عدم صبره الشخصى وغضبه السريع ٠

وعقب استقالة بوليت فى صيف عام ١٩٣٦ تولى السفارة بعده بشكل متمكن وكفؤ زميل كينان وصديقه من أيام ريجا لوى هندرسون القائم بالأعمال بالنيابة ، وبمرور عام ١٩٣٦ أصبحت السفارة فى موسكو واحدة من أفضل السفارات الاجنبية احتراما ، ففى هذه الفترة ـ فيما يسجل كينان ـ دعمت هذه السفارة بمجموعة من الرواد ونوع جديد من البعثة الدبلوماسية ، وأصبحت الأولى التى تتناول عملها بأسلوب مثقف ودارس مشابه للأسلوب الذى كان يتبع من قبل فى مفوضية ريجا ، وكان أعضاؤها مشربين باحساس بالأهمية الحالية والمستقبلة للعلاقات الأمريكية السوفيتية واعتقدوا أن من الأهمية القصوى تحليل النظام السوفيتى بشكل صحيح وصياغة الأساليب السليمة للتعامل معه ٠٠ غير أن هذا الوضع سرعان ما تناقض تماما مع ما أحدثه تعيين سفير جديد جاء من خارج السلك الدبلوماسى وجاء تعيينه ارضاء للحزب الديمقراطى ٠ ويقول كينان ان السفير الجديد والحاشية التى اصطحبها معه قد اكتسبوا عدم ثقة أعضاء السفارة وعدم محبتهم ، ليس بسبب دوافع شخصية وانما بسبب الشعور بعدم مواءمة قدراتهم للمنصب، واتجاه السفير الجديد لأن يوظف البعثة لخدمة أهداف الدعاية الشخصية فى الداخل ٠ وما عذب كينان وزملاءه بشكل أكثر هو الانطباع الذى تلقوه أن الرئيس الأمريكى لم يكن يعلم شيئا أو يعنيه شىء حول ما حققوه فى تطوير السفارة فى موسكو وأن المنصب بكل ما يمثله لم يكن أكثر من مكافأة سياسية تقدم مقابل مساهمات انتخابية ، وقد استتبع هذا أن يكون اهتمام السفير الجديد الأساسى هو صورته التى تعكسها الصحافة الأمريكية فى الداخل وبأن تبدو العلاقات الأمريكية السوفيتية وردية بغض النظر عما يعتمل تحت

السطح ، وقد تطلب هذا أسلوبا معينا فى التعامل مع السلطة السوفيتية بل وقبول بعض المضايقات ، كما تطلب أكثر من هذا نوعا معينا من التقدير السياسى وتحليلا مختلفا للدوافع والنوايا السوفيتية ، الأمر الذى عارضه كينان وزملاؤه فتقرر نقلهم ٠

وعند عودة كينان الى واشنطون عمل فى مكتب روسيا بقسم شرق أوروبا لمدة عام أدرك بعده أنه من الصعب ان يعول أسرته براتبه الذى يتقاضاه فى موطنه ، ولذلك التمس كينان نقله للخارج ، ورغم أنه كان ممتنا للاستجابة لطلبه الا أنه شعر أن سبب سرعة استجابة طلبه هو الشعور فى القسم الأوربى بأن وجهات نظر كينان حول روسيا تختلف بشكل كبير عن وجهات نظر السفير فى موسكو بل ومع وجهات نظر الادارة نفسها ، غير أن رحيله هذه المرة لم يكن الى موسكو وانما الى براج وسوف تمر ست سنوات قبل ان يعمل كينان مرة أخرى فى الحقل الروسى ٠

ولم تكن رحلة براج خالية من الأحداث ، فمع اقتراب وصوله الى براج كانت أزمة ميونيخ تبلغ قمتها وعادت أوربا مرة أخرى الى حافة الحرب ٠ وحين وصل الى براج كان يسودها الظلام وحالة الطوارىء ، وصباح اليوم التالى لوصوله أعلنت نتائج مؤتمر ميونيخ، وفى ميدان فاسلافسكى أعلنت هذه النتائج عبر مكبرات الصوت حيث شهد كينان أبناء براج يبكون على وفاة استقلال بلدهم الذى استمتعوا به لمدة عشرين عاما فقط ، وفى خلال ساعات كانت القوات الألمانية تحتل حدود المناطق مغلقة قلب بوهيميا ومورافيا ، وهكذا كان جو الحرب مخيما بل انه اعتبر أن الحرب قد بدأت فعلا فى هذه اللحظة والتى قدر لها أن تستمر لمدة ثمانية أعوام ٠

فى وسط هذه الظروف تفرض على الدبلوماسى المهموم متطلبات غريبة ، فقد حدث أن اختار السفير الأمريكى فى

لندن هذه الاوقات لكى يرسل أحد أبنائه في مهمة حول اوربا لتقصي الحقائق ، وكان على السفارة الأمريكية فى براج ان تجد الوسائل لعبوره عبر الحدود من خلال الخطوط الألمانية حتى يتمكن من ان يضمن برنامجه زيارة براج وكانت صورة هذا الابن فى عيون أعضاء السفارة الأمريكية هى صورة الشاب الجاهل ، ومع هذا فلم يكن هناك بد من عمل الترتيبات له وتمكينه من المرور عبر الخطوط الالمانية ومرافقته الى براج وجعله يشاهد ما يجب مشاهدته ثم الاسراع بعبوره مرة أخرى . غير أن أى شخص عاقل لم يكن يتصور فى هذا الوقت أن هذا الشاب سوف يصبح يوما رئيسا للولايات المتحدة ، وأن كينان كرئيس لبعثة دبلوماسية فى عهده سيكون تابعه المتواضع والمعجب به . تذكر كينان كل هذا وهو فى مكتبه فى بلجراد كسفير للولايات المتحدة فى عهد جون كنيدى ، الشاب الذى استقبله يوما وهو متضرر فى براج وسط جو الحرب وجيوش الألمان .

واستمر كينان في براج لمدة عام حتى اشتعال الحرب العالمية الثانية ، وفي منتصف هذا العام كان الألمان قد أجهزوا على الدولة التشيكية بالتقدم الى براج ومد احتلالهم الى كل بوهيميا ومورافيا . فى هذا الوقت كانت المفوضية الأمريكية قد أزيلت رسميا ولكن كينان ظل بناء على تعليمات من الخارجية الأمريكية يشرف على المبنى ويواصل عمله كمراقب سياسى ، وحين اشتعلت الحرب عام ١٩٣٩ نقل الى السفارة فى برلين .

★★★

يصور كينان وضعه فى براج بأنه كان فريدا خاصة خلال الشهور التى أعقبت دخول القوات الألمانية الى المدينة وقهر الدولة التشيكية ، فقد غادر المدينة الى مراكز أكثر حيوية فريق الصحافيين الأجانب ، وفى نهاية الأمر أصبح

كينان عمليا المراقب السياسى الغربى الوحيد الذى يقيم فيما تبقى من تشيكوسلوفاكيا ، وكان واضحا أن مصير أمة صغيرة احتلها وقهرها الألمان لم تكن تعنى الصحف اليومية لبلدان أوربا • غير ان هذا الوضع لم يكن خاليا من اثارة اهتمام كينان الذى ظل يكتب فيضا من الرسائل والتقارير لحكومته والتى لم يقرأها أكثر من خمسة أشخاص فى واشنطون ، وكانت مكافأته على ذلك نقله للعمل لمدة ثلاث سنوات فى السفارة فى برلين لأداء عمل ادارى ، غير أن هذا أيضا لم يثبط من عزمه فقد ظل يكتب بسرور وحماس مدركا أنه يستوعب العناصر الأساسية للتطورات الجارية وأنه يكتب بشكل أفضل مما كتب من قبل • فى هذا الوقت كان قد مر عليه عقد من الزمان وهو يكتب تقاريره الى وزارة الخارجية الأمريكية ، وبدأ هذا يعلمه الكتابة بلا جمهور أو على الأقل بدون أن يلمس أن أحدا يستجيب اليه ، وبدأ يتعلم كيف يستمتع بهذا الوضع •

كان دخول القوات الألمانية الى براج فى ١٥ مارس ١٩٣٩ تجربة مروعة ، وقد وصف كينان فى صفحة بليغة المسرح فى براج عقب الاحتلال الألمانى فقال :

« صيف آخر يقترب من نهايته ، أصعب صيف شهدته المنطقة منذ الحرب العالمية الأولى • كان صيفا غريبا تميز بعواصف متتابعة مدمرة دمرت المحاصيل وبدت رمزا قائما للآمال السريعة المتغيرة والمخاوف المتزايدة فى عقول الشعب • غير أن العمل قد استمر كالمعتاد ، وحتى الآن فان الفلاحين يكافحون بتشجيع من الألمان رغم المطر المستمر لجنى المحصول قبل أن تصل الأزمة الجديدة الى ذروتها ، كما أن الصناعات تعمل بشكل مستمر كى تلبى شهية الرايخ التى لا تشبع لمنتجاتها • غير أن جميع المظاهر الأخرى للنشاط الانسانى تبدو وقد أصيبت ببلادة غريبة وغالبا بالشلل • كل شىء كان فى حالة توقف ولا أحد يأخذ زمام المبادرة ولا أحد يخطط للمستقبل ، واستمرت الحياة الثقافية والترفيهية

بلا حماس او روح وبشكل آلى ، فلم تجذب المسارح والملاهى العامة الا جمهورا ضئيلا غير مبال ، وفضل النـاس الجلوس فى امسيات الصيف فى الحدائق والمتنزهات الصغيرة وعـلى شواطىء الانهار لتبادل الشائعات التى لا تعد ولا يعتقدون هم أنفسهم بصحتها، وينتظرون بصبر حدوث شىء لا يستطيع احد منهم أن يصفه تماما ولكنهم جميعا مقتنعون بضرورة مجيئه وأنه سيؤثر فى حياتهم بشكل عميق • ولابد أن يظهر المستقبل القريب اذا كان اتجـاه الترقب هـذا هـو نتيجة لغريزة سليمة أو حتى مجرد تعبير عن التردد الطبيعى لشعب استيقظ الآن فقط من حلم الاستقلال الذى دام عشرين عاما لكى يقبل من جديد أن يكون شعبا من الخدم » •

كانت هذه الصـفحة هى التقرير الأخير الذى بعث به كينان الى الخارجية الأمريكية من براج والذى نقل بعده الى برلين والتى كان يتصور أن يستأنف فيهـا كتابة تقـاريره السياسية كما كان يفعل فى براج ، غـير أن السـفارة فى برلين سرعان ما واجهت موقفـا تراكمت فيـه المشـكلات والأعباء الادارية نتيجة لظروف الحرب • كانت السـفارة الأمريكية وقتئذ ترعى مصالح بلدان غربية مثل بريطانيـا وفرنسا وحماية رعاياهم وممتلكاتهم الدبلوماسية وأسرهم فى الحرب فضلا عن مواجهة المشكلات الجـديدة التى كانت تؤثر عـلى المصـالح الأمريكيـة نفسها ، فى هـذا المـوقف وبالتعاطف مع القـائم بالأعمـال الأمريكى وقتئذ والذى أحبه كينان وقدره ، قدم كينان خدماته فى الشئون الادارية واستمر يفعل هذا طوال مدة خدمته فى برلين •

ورغم هذه الظروف غير العادية ، كان كينان يشعر أنه فى بيئته • فالبيئة مألوفة له واللغة يعرفها ، وفيما عدا بعض الزيارات القليلة للخارجية الألمانية لم تكن له علاقة بالنظام • غير أنه مما يلفت النظر ملاحظات كينان عن تبـاعد الألمان الذين شاهدهم عن النظام ، فهو يقرر أن أهل برلين أنفسهم،

الناس البسطاء ، أقل الناس استجابة للحكم النازي وتأثرا به في نظرتهم وسلوكهم ، فلم يتقبلوا أن يؤدوا التحية النازية واستمروا في تبادل التحية الألمانية التقليدية بدلا من تحية هتلر ، كما لم يبدوا أى حماس خاص للحرب ، ويشهد كينان من خلال ملاحظته ووقوفه بين الجمهور أنهم « شاهدوا بتحفظ وبصمت متجهم استعراض القوات المنتصرة العائدة من الحملة البولندية الناجحة ، كما لم يستطع أكثر النازيين تعصبا أن يدفعهم للاشتراك في مظاهرات التأييد والتهليل ، كما استقبلت أخبار سقوط باريس بنفس الصمت الغامض والمتحفظ » ٠

ويروى كينان أنه ركب لمدى أميال في أحد الأتوبيسات العامة المكتظة بالألمان حيث صوت الجميع مسموعا فلم يسمع أحدا يتحدث عن سقوط باريس ، ودارت كل الأحاديث حول الطعام وشئون الحياة اليومية ٠ وتحتوى يوميات كينان عن هذه الأيام الكثير مما يصور الاختلاف بين ما يقوم به النظام وبين ما يشغل الناس واهتماماتهم ٠

وقد حلت اللحظة الفاصلة في العلاقات الأمريكية الألمانية حين بدأت ترد انباء حادث بيرل هاربر واعلان الحرب بين الولايات المتحدة واليابان ، الأمر الذى كان يعنى أن تتطور الأمور فى أى لحظة الى اعلان الحرب بين ألمانيا والولايات المتحدة ٠ وظل الموقف متوترا غير واضح لمدة أربعة أيام بعد حادث بيرل هاربر ، غير أنه في خلال هذه الأيام الأربعة انقطعت تقريبا صلة السفارة الأمريكية بواشنطون وفجأة جاءت مكالمة تليفونية الى السفارة من وزارة الخارجية الألمانية بأن سيارة سوف تجيء لكى تحمل القائم بالأعمال لمقابلة وزير الخارجية ، ووصلت السيارة وبها الموظف الألمانى ، وتحمل كينان مهمة استقباله والترحيب به لحين وصول القائم بالأعمال الذى توجه الى الخارجية لكى يواجه

روبينتروب وهو يقرأ اعلان الحرب ويقول وهـو يصرخ :
« لقد أراد رئيسكم الحرب ، والآن لقد جاءته » ثم
استدار موليا ٠

★★★

وتلا هذا استدعاء كينان الى الخارجية الألمانية حيث
أبلغ ان على جميع أعضاء السفارة الأمريكية أن يصفوا جميع
متعلقاتهم وأن يتجمعوا فى مبنى السفارة فى صباح اليوم
التالى والا يحمل أحد منهم أكثر من حقيبتى يد ٠ وفى
الثامنة من صباح الأحد ١٤ ديسمبر ١٩٤١ كانوا مجتمعين
فى السفارة لكى يجدوا المبنى من الداخل والخارج يحرسه
أعضاء من الجستابو وأصبح أعضاء السفارة سجناءهم ،
وقبل أن ينتهى صباح يوم الأحد أخذوا فى سيارة أتوبيس
ووضعوا فى قطارين خاصين وأرسلوا لمدة شهرين من
الاحتجاز وبلا أى اتصال تحت حراسة مسلحة من الجستابو
فى مبنى على أطراف مدينة قرب فرانكفورت ، وأضيف الى
أعضاء السفارة عدد آخر من الامريكيين والصحفيين جمعوا
من أجزاء أخرى من أوربا المحتلة ووصل بهم العدد الى ١٣٠
شخصا ٠ ولم تهتم حكومة الولايات المتحدة بأن تتصل بهم
حتى نهاية آبريل عام١٩٤٢ ، الأمر الذى كان يمكن أن تفعله
بسهولة من خلال السويسريين الذين زاروهم من وقت لآخر٠
خلال هذه الشهور الخمسة والنصف تحمل كينان المسئولية
المباشرة للاشراف على النظام بين هذه المجموعة من السجناء
الجوعى والقلقين والذين ملأت مشاغلهم ومشاجراتهم
وشكاواهم وغيرتهم كل لحظة من لحظات يومه ، وكان من
الممكن أن تملأ تفاصيل هذه المحنة كتابا ٠ غير أن هذه
التجربة قد علمته شيئا عن سلوك البشر فى الأوقات العصيبة
بما تبديه قلة من ثقة وشجاعة وتماسك وهم الذين شعر
كينان ازاءهم بالاعجاب ، أما الأغلبية فكانت استجابتهم
سلبية وكان شعوره نحوهم مزيجا من التعاطف والقلق ، أما
القلة الأولى فلم يشعر ازاءهم الا بالرعب والاشمئزاز ٠

ومضت الباخرة التى تقل مجموعة الأمريكيين من ألمانيا الى نيويورك مع بداية يونيو عام ١٩٤٢ · وكان كينان محظوظا أن منح عطلة طويلة قضاها فى البحث عن اول بيت يملكه وكان عبارة عن منزل واسع وان كان مهجورا فى مزرعة جنوب بنسلفانيا · وفى أغسطس عاد الى الخارجية وأسند اليه قسم في ادارة شئون الأفراد ، وكان قبل قيامه باجازته قد سلم لمساعد الوزير للشئون الادارية تقريرين أحدهما حول مشروع الأكاديمية للخدمة الخارجية ، والآخر حول الحاجة لتوسع جذرى فى أعضاء وزارة الخارجية لمواجهة المتطلبات المتزايدة لحالة الحرب والحاجات التى ستفرضها فترة ما بعد الحرب ، غير أنه لدهشته وجد الورقتين بين أكوام الأوراق التى أحيلت اليه للتخلص منها ، وتيقن من غياب أى تأشيرات عليهما ·

ولم يمر شهران الا وتلقى كينان تعليمات عاجلة بالسفر الى البرتغال للعمل كقنصل بالقنصلية الامريكية هناك · كان هذا هو مركزه الرسمي بكل واجباته المترتبة عليه ، غير أنه بالاضافة الى هذا طلب منه بشكل شخصى وغير رسمى أن يتحمل مسئولية محاولة اصلاح التشويش الشنيع الذى خلقه رجال المخابرات الأمريكية بينهم وبين البريطانيين فى جهودهم للزج بأنفسهم فى عمليات التجسس ومقاومة التجسس التى شهدتها لشبونة خلال الحرب ·

أما المهمة الثانية التى أسندت الى كينان بعد البرتغال فكانت فى السفارة الأمريكية فى لندن كمستشار سياسى للسفير الأمريكى باعتباره الممثل الأمريكى فى اللجنة الاستشارية الأوربية التى أنشئت حديثا واتخذ قرار انشائها فى اجتماع وزراء الخارجية الثلاثة : الأمريكى والبريطانى والروسي الذى انعقد فى موسكو فى أكتوبر ١٩٤٣ ، وكانت الفكرة مبادرة بريطانية قصد بها أن تكون « كجهاز استشارى

يعمل على معالجة أى مشكلات أوربية ذات طابع مشترك يتصل بالحرب بخلاف ما يتعلق بالعمليات الحربية » ٠

بعد هاتين المهمتين العارضتين ، سوف يستأنف كينان صلته بالمسرح السياسى السوفيتى ، فبعد انهاء عمله فى لندن عاد الى واشنطون فى ربيع عام ١٩٤٤ بدون فكرة واضحة عما يراد منه عمله ، وكان صديقه Chip Pohlen الذى كان يعمل وقتها كضابط اتصال بين الخارجية والبيت الابيض قد أبلغه أن الوزير المفوض بالسفارة الأمريكية فى موسكو على وشك أن ينقل ، وأن السفير هناك افريل هاريمان يبحث عن وزير جديد ، وكان أن قدم بوهلين كينان الى هاريمان ، وعلى عشاء فى شقة هاريمان فى فندق سانت فلاور اتفق على أن يتولى كينان هذا المنصب ، وتم هذا بادراك كامل للحقيقة التى بذل كينان جهدا كبيرا فى تأكيدها وهى أن وجهات نظره حول السياسة الأمريكية تجاه الاتحاد السوفيتى ليست تماما هى وجهات نظر الادارة ٠

كانت عودة كينان الى موسكو كوزير مفوض تجربة غريبة وغير مستقرة بالنسبة له من نواح كثيرة أشبه بعودة أحد الموتى الى عالم الأحياء : له ميزة أن يشهد كيف تقدمت الحياة بعد موته ولكنه دائما يذكر حياته السابقة وذكرياتها ٠ لم يكن هناك فى السفارة ولا بين أعضاء السلك الدبلوماسى من كان هناك خلال فترة خدمته الأولى فى موسكو ٠ وكان ــ وقد بلغ الأربعين من عمره ــ أكثر أعضاء السلك الدبلوماسى من حيث فترة عمله فى روسيا ، وكان زملاؤه يمثلون جيلا جديدا له اهتماماته الجديدة خاصة بين أعضاء سفارته ، وكانت ذكريات وأفكار السنوات الأولى الموجودة فى السفارة قد طمستها الحرب والتغييرات التى حدثت فى أعضائها ٠ وخارج نطاق المستعمرة الدبلوماسية التى كان يعيش فيها ، كانت تمتد ما كانت بالنسبة له أرض روسيا العظيمة التى تدعوه وتبهره « وما كانت

بالنسبة له أكثر جاذبية من أى مكان آخر فى العالم » ، غير آن المفارقة كانت تبدو فى أنه لم يكن بامكانه ان ينغمس أو يشارك الناس العاديين في الحياة فيها ، فلم يكن تحالف الحرب بين الولايات المتحدة وروسيا قد غير شيئا من عزله الدبلوماسيين الأمريكيين عن المجتمع الروسى ، غير آن هذا لم يحل بينه وبين السير فى طرقات المدينة وأحيائها او زيارة الحدائق والمسارح • ولشغفه وتطلعه وألفته الجديدة مع بيئة البلد فقد ألقى بنفسه فى هذا الاختبار مثلما يلقى رجل عطشان نفسه على تيار نقى من الماء ، فكان يجوب الشوارع والحدائق فى الأمسيات ويقضى أيام الأسبوع وبشكل عشوائى فى مناطق الريف بحثا عن متعة الاندماج ، مجهول الهوية ،بالشعب العادى ليشعر وبشكل متواضع كأنه جزء منهم ومن حياتهم •

وسياسيا ، كان كينان فى الفترة التى سبقت مباشرة عودته الى موسكو قد بدأ يتساءل حول اساسيات رؤيته للسياسة الأمريكية تجاه الاتحاد السوفيتي والتى كان يعتقد آنها تقوم على سوء فهم خطير ، الا آنه بعد عودته بدا غير واثق تماما من أفكاره وهل تمثل حقا الواقع وخاصة بعد تجربة الحرب التى مر بها النظام السوفيتى ، وراح يتساءل ان كانت الحرب الكبرى ، والألفة التى تحققت بين النظام وشعبه خلالها ، والارتباط مع الحلفاء فى عمل عسكرى مشترك ، ان كان هذا قد نجح فى اقناع الاتحاد السوفيتى بمدى الأزمة المشتركة التى تربط الناس فى كل مكان وبأنه يمكن أن يكون هناك ثقة وتعاون حتى بين البلدان ذات النظم الاجتماعية المختلفة ، وبأن هذه الخلافات يجب ألا تكون العامل الحاسم النهائى بين الدول ، وأن ثمة عوامل أخرى تحمل الأمل يمكن أن تلعب دورها • ولكى يتأكد من هذه التساؤلات ، فقد كان مستعدا لأن يتحفظ بالنسبة لحكمه النهائى حتى يرى بنفسه • غير أن انقضاء أسابيع من الحياة والعمل فى موسكو خلال صيف عام ١٩٤٤ كانت

الفترة كان كافيا لكى يقنعه بأنه ليس فقط السياسة الأمريكية تجاه روسيا وانما أيضا خططها والتزاماتها كافية لكي تنتهي حالة عدم التأكد هذه فما رآه خلال هذه لصيانة عالم ما بعد الحرب كانت قائمة على قراءة خاطئة للشخصيات والنوايا والموقف السياسى للقيادة السوفيتية ٠ وكان كينان يدرك أنه ليس لديه التزام بازالة سوء الفهم هذا ، فقد كان مفهوما حين تولى هذا المنصب أنه ليست لديه مسئولية سياسية ، كما كان يدرك فى ضوء خبرته فى المناصب التى تولاها خلال الحرب أن وجهات نظره لن يرحب بها المسئولون فى واشنطون - غير أنه وجد من الصعب عليه أن يبقى صامتا ، وأرشده ضميره أن يحاول كتابة وجهة نظره حول طبيعة القيادة السوفيتية والموقف الذى وجدوا أنفسهم فيه وهم يدخلون المرحلة الأخيرة من الحرب وأن ينقل هذا للمسئولين عن صناعة السياسة الأمريكية وسيترك لهم أن يستخلصوا النتيجة المنطقية اذا كانوا حقا مهتمين بذلك ٠

كانت نتيجة ذلك مقالة فى ٣٥ صفحة تحت عنوان « روسيا بعد ٧ سنوات » ٠ فى هذه المقالة صب كينان خبرته وما تعلمه عن روسيا ستالين بوجه خاص باعتبارها ظاهرة ستظل تحلق فى أفق السياسة الأمريكية ٠

بدأت هذه الورقة ، « روسيا بعد سبع سنوات » بتقييم لأثر الحرب على العلاقة بين النظام السوفيتي والشعب ، ومدى التغيرات الديموجرافية التى أحدثتها الحرب ، وكذلك مدى التوسع السوفيتى فى شرق أوربا ، وتوازن القوى بين روسيا والغرب ٠ ولم تكن هذه التغيرات فيما أعتقد كافية لتأييد الرأى القائل بأن « أوربا القديمة » قد انتهت أو أن أحدا يجب أن يتوقع « ٠٠ تأسيسا مبكرا للسيطرة الروسية عبر القارة » ، الا أنه اعتبر أن هذه التغييرات قد سجلت بالفعل تغيرا كبيرا فى ميزان القوى

لصالح الروس . واختتم كينان ورقته بقوله : « ان شعبا من مائتى مليون متوجه تحت قيـادة قوية هادفة فى موسـكو ، ويسكن واحدة من أكبر البلدان الصناعية فى العالم ويشكل قوة واحدة لهو أعظم بكثير من أى قوة ستقوم فى أوربا حين تنتهى هذه الحرب ، مثل هذا الشعب سيكون من الحمـاقة سوء تقدير امكاناته سواء أتجهت للخير أم الشر » . واختتم كينان مقالته ببعض التأملات حول الصعوبات الفلسفية أمام الأمريكيين فى محاولتهم فهم وقائع الحياة الروسية والفـكر الروسى ، واختتمها بهذه السطور المتشائمة وان كان فيهـا شىء من النبوءة :

« ان حسن الادراك قد يمكننا من مواصلة هذا التعايش الخطر المضطرب والسـلمى الذى اسـتطعنا ان نعيشه مـع الروس حتى هذا الوقت . ولكن ان كان الأمر كذلك ، فلن يكون راجعا لأى فهم من جانبنا للعناصر التى يتضمنها هذا التعايش . ان قوى أبعد من رؤيتنا سوف توجه خطواتنـا وتشكل علاقاتنا مع روسيا ، وسيكون هناك حديث متـكرر حول ضرورة « فهم روسيا » ، ولكن لن يكـون هنـاك مكان للأمريكى الذى يرغب حقيقة فى أن يقوم بهذا العمل المقلق . ان ادراك ما هو صالح فى العالم الروسى هو أمر مقلق للعقل الأمريكى ، ولن يحقق من يقوم بهذا العمـل أى شىء عملى بالنسبة لشعبه ، أو بالنسبة للرسميين أو تقدير الجمهـور لجهوده . ان أفضل ما يمكن أن يتطلع اليـه هـو السرور الموحش لمن يقف مدة طويلة عـلى قمة جبـل بارد لم تطأها الا القلة ولن يتبعه فيها الا القلة كذلك » .

ولا يدع كينان فترة عمله الثانية فى موسكو تمر دون أن يتحدث عن السفير الذى عمل معه وهـو افريل هاريمان والذى كان شخصية بارزة فى السياسة الأمريكية حيث عمل مستشارا للعديد من الرؤساء الأمريكيين وسيساهم فى صياغة السياسة الأمريكية لفترة ما بعـد الحـرب . ويقرن كينان

احترامه للرجل وتكرسه واخلاصه لعمله الذى لا يجد خارج نطاقه متعة له ، يقرن ذلك بملاحظاته عن أسلوبه فى العمل ونظرته لنفسه ولدوره كسفير • فهو حريص جدا على معرفة أدق التفاصيل ، وهو يتوقع من الرجل الثانى للسفارة أن يعمل ويتأكد من أن كل ما أصدره السفير من تعليمات قد نفذ فى الحال وبغض النظر عن الظروف •

وهو ينظر الى نفسه لا كصانع للسياسة أو منظر وانما كمنفذ لها ، ويعتبر أن دور ومهمة الدبلوماسى والسفير هو أن يكون قناة حساسة ودقيقة وذكية للاتصال بين حكومته والحكومة المعتمد لديها • لذلك كان هاريمان ينظر بتعجب الى كينان والى أحاديثه العميقة حول مسائل وقضايا هى فى اعتقاده من اختصاص رئيس الجمهورية أن يفكر فيها • ولأنه عرف معنى السلطة وعمل معها ، ولأنه يدرك أنه يعمل فى بلد تلعب فيه شخصية الزعيم دورا حاسما فى السياسات فقد كان يعتقد أن مقابلة واحدة مع ستالين يمكن أن تنبئه بخبايا وأهداف وحقائق السياسة السوفيتية أكثر مما تنبىء به شهور يقضيها كينان وزملاؤه فى قراءة ودراسة الوثائق السوفيتية •

على أن كينان يشهد أنه فى ضوء فهم هاريمان لدوره كسفير فان أحدا لم يقم بهذا الدور مثلما قام به هاريمان من دقة فى تنفيذ تعليمات حكومته • كما أن أحدا لم يحتفظ بمثل ما احتفظ به من مذكرات دقيقة حول عمله ، أو بعث بتقارير كاملة وأمينة يمليها الضمير حول نتائج مقابلاته واتصالاته بمثل ما فعل هاريمان ، كذلك لم يكن هناك أبعد من هاريمان عن تشويه سجله لمجرد أن يحقق ميزة شخصية له ، وكان اتقانه فى أدائه لواجباته بارزا لا شك فيه • ويعتبر كينان أنه بسبب مزايا هاريمان الجوهرية ، فقد حظى باحترام وتقدير كل شخص ويروى كينان أنه يسأل صديقا روسيا عن كيفما يرى الروس هاريمان فأجابه : « ويقولون لأنفسهم : هناك رجل » •

ومن أبرز ما ميز عمل كينان في هذه الفترة في موسكو، وما كان له تأثير أساسى على مستقبله ومكانته ، ما عرف بـ The long telegram، فقد تصادف أنه كان قائما بالأعمال حين تلقى من الخارجية الأمريكية تلغرافا يتساءل فيه عن معنى ما تبين من آن الاتحاد السوفيتي غير مستعد للاشتراك في البنك الدولى وصندوق النقد الدولى • وقد توافق هذا التطور وتساؤل الخارجية الأمريكية عن معناه مع ما كان يعتمل في تفكير كينان فيما هو أعم وأبعد من هذا وما يقف وراءه ووراء السلوك السوفيتي بصفة عامة من دوافع وأسباب تتصل بطبيعة النظام وخصائصه • لذلك قرر كينان أن يكون رده على تساؤل الخارجية الأمريكية أكثر شمولا من الجزئية التي يستفسر عنها ، وجاء رده في برقية طويلة بلغت ٨ آلاف كلمة تناول فيها الملامح الأساسية للنظرة السوفيتية لما بعد الحرب وخلفيات هذه النظرة وانعكاسها على السياسة الرسمية وغير الرسمية •

وقد جاء تأثير هذه البرقية في واشنطون مثيرا بأكثر مما أحدثته أى مساهمة أخرى ، فقد قرأها الرئيس الأمريكي وأمر وزير البحرية باعادة طبعها وتوزيعها ، وطلب من مئات ان لم يكن آلاف المسئولين قراءتها • أما وزارة الخارجية الأمريكية التي لا شك أزعجها سوء استخدام البرقيات الشفرية في مثل هذه المراسلات الطويلة فقد بعثت لكينان ببرقية شكر • وبمثل هذه البرقية انتهت عزلة كينان الرسمية على الأقل لمدة عامين أو ثلاثة وذاعت سمعته ووصل صوته • وهكذا غير النجاح الذى لاقته هذه البرقية مجرى حياته فقد أصبح اسمه معروفا ومسموعا في واشنطون وأصبح في نظرها مؤهلا لمنصب مختلف عما سبق أن تقلده • فحين نقل الى واشنطون في أبريل عام ١٩٤٦ عين نائبا

أول للشئون الخارجية في مؤسسة أنشئت حديثا هى كلية الحرب الوطنية National Warcollege وقصد بها ان تكون فى قمة المؤسسات التى تعنى بتعليم وتدريب رجال القوات المسلحة وهم فى منتصف خدمتهم Midcareer كذلك أسندت اليه وزارة الخارجية مهمة القيام بجولة فى عدد من الولايات الامريكية فى الغرب لكى يتحدث فى مؤسساتها المختلفة وبين قطاعات من الرأى العام بها ، وفى هذه الجولة رصد كينان عددا مختلفا من الاتجاهات والاستجابات ، كان أفضلها لمجموعة رجال الأعمال ، فهم رغم شكهم ونظرتهم النقدية قد تربوا فى مدرسة جدلية سمحت لهم بأن يعارضوا منافسيهم دون حاجة أو رغبة فى تدميرهم ، وبهذه الصفة وجدهم قادرين على أن يتفهموا ان العداء الأمريكى السوفيتى قد يكون خطرا ولكنه لا يتطلب اللجوء الى الحرب • ولدهشته وجد أن أكثر المجموعات التى التقى بها وخاطبها صعوبة كانوا الأكاديميين ، لا بمعنى أنهم أظهروا اتجاها معاديا وانما لأنهم كانوا غير مهيئين لما سيقوله كينان ، فقد كانوا متغطرسين وأدعياء ، وضاعف من هذا تحيزهم ضد وزارة الخارجية وكذلك عقدة نقص جغرافية ترى الشرق وخاصة وزارة الخارجية خلوا من الحكمة وعمق النظرة التى ازدهرت فى مراكز التعليم فى الساحل الغربى •

وفى أوائل عام ١٩٤٧ وهو ما يزال فى كلية الحرب ، دعاه دين اتشيسون وكان مايزال وكيلا لوزارة الخارجية الى مكتبه وأبلغه أن الجنرال جورج ماريشال الذى شغل منصبه مؤخرا كوزير للخارجية ، يفكر فى انشاء ادارة للتخطيط السياسى Policy Planning فى وزارة الخارجية وأنه من المحتمل أن يطلب من كينان أن يرأس هذه الادارة الجديدة •



وفى ٢٤ فبراير ١٩٤٧ دعاه اتشيسون مرة ثانية الى مكتبه وأخبره عن الأزمة التى تتجمع نتيجة لقرار الحكومة

البريطانية التخلى عن تأييدها الخاص لليونان ، وطلب منه أن يشترك فى مناقشات لجنة خاصة انشئت لدراسة موضوع تقديم مساعدة لكل من اليونان وتركيا . وقد اجتمعت اللجنة فى نفس اليوم مساء برئاسة صديقه القديم لوى اندرسون وزميله فى مفوضية ريجا ، والذى كان يرأس حينئذ ادارة الشرق الأدنى . وكان أمام اللجنة دراسة ما اذا كانت الولايات المتحدة تستجيب بشكل حازم تجاه الوضع الذى فرضه قرار بريطانيا بالانسحاب وترك اليونان والأتراك يتصرفون فى امورهم . وقد أوضح اندرسون ان الموضوع قد حسم من حيث المبدأ بينه وبين دين اتشيسون وان الامر المتروك للجنة هو أن توصى كيف تقدم وزارة الخارجية هذا الموقف للوزارات الأخرى والكونجرس والرأى العام . غير أن كينان رغم موافقته على مبدأ تقديم المساعدة للبلدين قد اختلف وعبر عن عدم سعادته للأسلوب والصياغة التى صدر بها تقديم هذه المساعدة وما عرف بمبدأ ترومان ومثل ما يوضح ما كتبه كينان حول هذا الموضوع أن الورقة التى تضمنت هذا المبدأ لم تكن الورقة التى أعدت فى وزارة الخارجية وانما التى أعدت فى البنتاجون . وكان ما استوقف نظر كينان واعترض عليه هو وضع القرار فى عبارات ضخمة وبشكل جارف أكثر مما تصوره وخاصة فيما يتعلق بالالتزامات التى تضمنتها وتركزت على وجه خاص فى العبارة التالية « انى أعتقد أن الولايات المتحدة يجب أن تقوم بتأييد الشعوب الحرة التى تقاوم الخضوع للأقليات المسلحة أو الضغط الخارجى . انى أعتقد أننا يجب أن نساعد الشعوب الحرة لكى تصنع مصيرها الخاص بطريقتها الخاصة » .

وكان موضع اعتراض كينان على هذه الفقرات وغيرها من رسالة ترومان الى الكونجرس وتضمنت مبدأه هو أنها وضعت المساعدة الأمريكية لليونان فى اطار سياسة عالمية

أكثر منها فى اطار قرار محدد موجه ويعالج مجموعة ظروف محددة ، وكان هذا يعني فى نظر كينان أن ما قررت الولايات المتحدة أن تفعله فى حالة اليونان هو شيء سيكون عليها أن تفعله فى حالة بلد آخر بشرط أن يواجه خطر الخضوع لأقليات مسلحة أو ضغط خارجى ، وهو شرط رآه كينان غير مؤكد بدرجة كبيرة ، كما أنه خارج امكانات الولايات المتحدة فى مساعدة الأقطار التى تجد نفسها فى هذه الظروف الطارئة • فى هذا الموقف ، مساعدة اليونان وتركيا وفى مواقف أخرى ، يعبر كينان عن دهشته من النفور الفطرى الأمريكى من اتخاذ مواقف محددة لمشكلات محددة وسعيهم المتواصل للوصول الى صيغ عالمية أو نظريات يغلفون بها ويبررون تصرفات خارجية • كما يكتشف كراهية أمريكية للتمييز بين المواقف ، وولعا للتوصل الى معيار عام يحكم مختلف المواقف والأوضاع حيث تتخذ القرارات الهامة لا وفقا لظروفها الخاصة وانما بشكل تلقائى، وبنفس المعنى ثمة ولع أمريكى لالحاق أهمية عالمية لقرارات كانت ضرورية لأسباب محدودة ، ويعطى كينان أمثلة على هذا الاتجاه الأمريكى من تفسير الحرب العالمية الأولى ، فلم يكن كافيا حين أرغمت الظروف الولايات المتحدة على دخول الحرب تفسير ذلك بالأسباب المحددة لذلك ، وانما كان تقديم المجهود الأمريكى فى الحرب على أنه لجعل العالم ـ وليس أقل من ذلك ـ « مكانا آمنا للديمقراطية » •• كما لم يكن كافيا تفسير دخول الحرب الثانية مهاجمة اليابانيين لبيرل هاربر ، وأن كلا من الألمان واليابانيين أعلنوا الحرب على الولايات المتحدة ، الا أن الولايات المتحدة لم تشعر بالراحة الا بتغليف مجهودها الحربى فى اطار عالمى واضفاء تعميمات على ميثاق الأطلنطى • كذلك يربط كينان بين هذا وبين ما ظهر بعد الحرب الثانية من ميل أمريكى لتقسيم العالم بشكل حاسم الى قسمين : العالم الحر والشيوعيين ، وبهذا الشكل تجاهلت الولايات المتحدة أن هناك خلافات محددة داخل كلا الجانبين •

ويحاول كينان ان يجد تفسيرا لهذا الميل الآمريكى فى اضفاء العمومية والعالمية على القرارات والمواقف وتجاهل التمايز والاختلافات المحددة ، فيرجع هذا الى آن الولايات المتحدة أمة يحكمها القانون أكثر مما تحكمها حرية التصرف أو القرار للسلطة التنفيذية ، والى حرص الكونجرس الأمريكي على أن يقيد حرية تصرف السلطة التنفيذية وعدم قدرته فى نفس الوقت على متابعة قراراتها اليومية ، ولهذا كان رجال الكونجرس يشعرون بالحاجة الى قرارات عامة تحدد النطاق الذى تتخذ فيه هذه القرارات • وأيا كانت منابع هذا الميل الأمريكي فان كينان يراه شيئا يحالفه التوفيق ، فهو يشوش فهم الرأى العام للمسائل الدولية أكثر مما يوضحها له ، وهو يعوق عملية اتخاذ القرارات ويجعل اتخاذها وفقا لمعايير تتصل جزئيا فقط بالموضوع وربما لا تتصل به على الاطلاق •

ويسجل كينان دوره فى صياغة فصل هام من السياسة الخارجية الأمريكية لأوربا بعد الحرب ، وهو المشروع الذى وضع أساس النهوض الاقتصادى للدول الاوربية واقتصادياتها التى دمرتها الحرب وانعكس بشكل مدمر على الكيان الاجتماعي لهذه الأمم ، وهو الوضع الذى وصفه تشرشل وهو يجيب عن تساؤل : ما هى أوربا الآن ؟ وأجاب « انها كوم من الحطام ومقبرة للموتى وأرض خصبة للطاعون والكراهية » •

ويفصل كينان مراحل التفكير ووضع مشروع ماريشال ودوره فيه فيقول انه فى ٢٨ أبريل عام ١٩٤٧ عاد وزير الخارجية ماريشال من موسكو بعد اجتماعات مجلس وزراء الخارجية وهو مضطرب لما تحقق منه عن خطورة وضغط المحنة التى تمر بها دول غرب أوربا حيث فشل الاصلاح الاقتصادى فى أن يستمر كما كان متوقعا ، وبدا أن تفككا اقتصاديا شاملا وشيك الوقوع • وفى اليوم التالى لعودته

دعا جورج كينان الى مكتبه وأبلغه إنه قد لا يكمل عامه فى كلية الحرب حيث عليه أن يعود للخارجية وينشىء ادارة للتخطيط بها بدون تأخير ، فأوربا فى حالة من الفوضى وثمة شىء يجب عمله وأنه ان لم تأخذ الخارجية الأمريكية زمام المبادرة فان آخرين وخاصة فى الكونجرس سوف يتقدمون ، ولهذا فان على كينان أن يسرع فى انشاء ادارة التخطيط وأنه ليس أمامه سوى أيام أو على الأكثر أسابيع لكى يتقدم فيها بتوصياته عما يجب عمله لمواجهة هذا الوضع الأوربى ، ثم أضاف ماريشال وبشكل يتفق مع شخصيته أن لديه فقط نصيحة واحدة يقدمها لكينان وهى « أن يتفادى التفاهات » ٠

وهكذا وجد كينان أن عليه أن يستعرض كل المشكلات الضخمة للنهوض الاقتصادى لاوربا في كل تعقيداتها ، وأن يبحث عن النصيحة فى خارج وزارة الخارجية ، وأن يقدم التوصيات التى طلبها وزيرالخارجية وأن يكون مستعدا للدفاع عن هذه التوصيات ضد نقد الأجهزة الحكومية الأخرى ٠

وفى ٥ مايو ١٩٤٧ انتهى كينان من تشكيل هيئة التخطيط وصدر قرار الوزارة بانشائها محددا الوظائف الرئيسية التى يتعين عليها تحقيقها :

١ ـ أن تصوغ وتطور برامج طويلة الأمد لتحقيق أهداف السياسة الخارجية الأمريكية ٠

٢ ـ توقع المشكلات التى قد تواجهها وزارة الخارجية فى أدائها لرسالتها ٠

٣ ـ القيام بدراسات واعداد تقارير حول المشكلات السياسية العسكرية العريضة ٠

٤ ـ فحص المشكلات والتطورات التى تؤثر على السياسة الخارجية الأمريكية من أجل تقييم سلامة السياسة الراهنة ووضع توصيات ونصائح حولها ٠

٥ ـ تنسيق أوجه التخطيط داخل وزارة الخارجية •

كذلك أتم كينان تشكيل أعضاء الادارة الجديدة مستعينا بشخصيات متنوعة من خارج الخارجية سواء من المجال السياسى أو العسكرى أو الأكاديمى •

وفى ٢٣ مايو ١٩٤٧ أكملت هيئة التخطيط توصياتها بشأن مشروع النهوض الاقتصادى لأوربا وسلمته لوزير الخارجية ماريشال ، وكان من الطبيعى أن تكون الأفكار التى بنيت عليها هذه التوصيات من مصادر متعددة ، الا أن الصياغة النهائية كانت لكينان ـ ولم يتح لهذه التوصيات أن تنشر الا أن أجزاء منها وردت فى أهم الكتب التى صدرت عن مشروع ماريشال والذى وضعه T. Tames : بعنوان « مشروع ماريشال ومعناه » •

وبالنظر الى أن وقتا طويلا سوف يمضى قبل أن يتم وضع برنامج شامل للنهوض الاقتصادى لأوربا وأن يكون له اى تأثير فعال ، فقد بدأت الورقة التى تضمنت التوصيات بتقسيم المشكلة الى جوانبها الطويلة والقصيرة الأمد ـ وأوصت ببرنامج سريع لانتاج الفحم الأوربى يهدف الى تصفية ما بدا لواضعى الورقة أخطر وجوه الاختناق فى اقتصاديات غرب أوربا بوجه عام وهى امدادات الوقود الصناعى • أما المشكلة الطويلة الأجل فقد وصفتها الورقة بأنها ناتجة فى جزء كبير منها « عن الأثر الممزق للحرب على الهيكل الاقتصادى والسياسى والاجتماعى لأوربا » • ثم ركزت الورقة على ضرورة أن يكون هناك خط فاصل وواضح فى تقسيم المسئوليات واجراءات العمل بين دور الولايات المتحدة فى معالجة هذا الوضع وبين دور ومسئوليات الدول الأوربية التى سيشملها البرنامج • فى هذا الشأن أوضحت الورقة « أنه سيكون من غير الملائم ولا الفعال للولايات المتحدة أن تتولى بشكل منفرد وبمبادرة منها وضع

برنامج يهدف الى أن تقف أوربا على قدميها اقتصاديا ، فهذه مسئوليه الاوربيين ، فالمبادرة الرسمية يجب أن تجىء من أوربا وأن يتحمل الأوربيون المسئولية الرئيسية منها ، أما دور الولايات المتحدة فهو المساعدة الصادقة فى صياغة مشروع البرنامج الأوربى ثم تأييد هذا البرنامج بعد ذلك بالتمويل وبوسائل اخرى بناء على طلب أوربى » • وعلى هذا كان تصور الورقة الرئيسى هو أن يجتمع الاوربيون أولا معا وان يتفقوا على برنامج منسق للنهوض الاقتصادى على نطاق اوربى ، وفى هذا قالت الورقة : « ان هذا البرنامج المطلوب من الولايات المتحدة تأييده يجب أن يكون برنامجا مشتركا متفقا عليه من عدة دول أوربية ، وفى الوقت الذى يمكن أن يكون فيه هذا البرنامج مرتبطا ببرامج وطنية فردية مثل خطة مدنية فى فرنسا ، فانه ، ولاسباب سيكولوجيه وسياسية واقتصادية أيضا يجب أن يكون برنامجا متفقا عليه دوليا • والطلب الذى يقدم الينا يجب أن يكون طلبا مشتركا من مجموعة من الدول الصديقة وليس كسلسلة من الطلبات الفردية » •

ويفسر كينان السبب وراء هذا المطلب الأخير للورقة بأنه ان لم تصر عليه الولايات المتحدة فانها كانت ستواجه سلسلة كاملة من المطالب الفردية لكل دولة وجميعها مبالغ فيها لأغراض تنافسية وتعكس جميعها محاولات حل المشكلات الاقتصادية فى اطارات وطنية أكثر منها على أساس اوربى شامل •

كذلك كان من المفاهيم الأساسية التى يجب أن يقوم عليها البرنامج فى تصور الورقة هو وضع اوربا عند النقطة التى تصبح فيها قادرة على الاحتفاظ بمستوى معقول من الحياة على أساس من التمويل الذاتى ، وأن تقدم اوربا وعدا بأنها ستقوم بالمهمة كلها ، كذلك يجب أن يتضمن البرنامج تأكيدات معقولة بأنه اذا ما أيدته الولايات المتحدة فانه

سيكون البرنامج الأخير الذى سيكون عليها تأييده فى المستقبل القريب ·

وقد تعمد كينان أن يضمن التوصيات حول أهداف وتوجيهات المساعدة الأمريكية لدول أخرى تصحيحا للانطباعات التي اعتقد أن نظرية ترومان قد تركتها فى هذا الشأن كنتيجة للصياغات العامة التى صيغت بها النظرية ، فقد اعتقد كينان أن نظرية ترومان قد تركت الانطباع بأن:

(أ) جهود الولايات المتحدة فى تقديم مساعدة اقتصادية لدول أخرى مدفوعة فقط برغبتها فى مقاومة الشيوعية ، وأنه ما لم يكن هناك خطر شيوعى فلا شىء سيهم الولايات المتحدة ·

(ب) تقدم نظرية ترومان (شيكا على بياض) لتقديم مساعدة اقتصادية وعسكرية لاى منطقة فى العالم يظهر فيها الشيوعيون علامات على النجاح · ولذلك فانه من الواجب توضيح ، ازاء هذا التصور الذى تركته نظرية ترومان ، ان تقديم المساعدة الأمريكية هى مسألة اقتصاد سياسى بالمعنى الحرفى لهذه الكلمة ، وأن هذه المساعدة سوف ينظر فيها فقط فى الحالات التى تبررها النتائج المتوقعة وما ينفق فيها من موارد وجهود ·

بعد تقديم هذه التوصيات ، عقد وزير الخارجية مارشال اجتماعا ضم عددا من شخصيات وزارة الخارجية لمناقشتها · وكان من أهم النقاط التى آثيرت هى احتمال اشتراك الاتحاد السوفيتى فى المشروع وعما سيكون عليه رد فعل الولايات المتحدة اذا ما قبل الروس الاشتراك فيه · وقد كان من رأى كينان وجوب معالجة الأمر بشكل مستقيم، فاذا رد السوفيت بشكل ايجابى حول اشتراكهم فان الولايات المتحدة يجب أن تختبر حسن نواياهم بالاصرار على ضرورة

مساهمتهم بشكل بناء فى البرنامج والانتفاع من مزاياه ، فان لم يكونوا مستعدين لذلك فانهم هم الذين يجب أن يستبعدوا أنفسهم من البرنامج وألا تبدو الولايات المتحدة بأنها هى التى قسمت أوربا ٠

وبعد هذه المناقشات تسلم ماريشال التوصيات ٠ أما مدى ما ساهمت به ومدى ما أخذ منها فى الاعلان النهائى عن المشروع الأمريكى ، فقد تبينه كينان بعد أن استمع الى الخطاب الذى ألقاه وزير الخارجية ماريشال فى جامعة هارفارد وضمنه المشروع الذى عرف باسمه للنهوض باقتصاديات أوربا ، فقد ظهرت هذه التوصيات بالاضافة الى أفكار واقتراحات من أجهزة وأشخاص آخرين فى البرنامج النهائى ٠

واذا كان « التلغراف الطويل » قد أبرز كينان واسمه ومكانته فى أوساط واشنطون الرسمية وقربه لأن يصبح من المخططين الأساسيين للسياسة الخارجية الأمريكية ، فان مقارنته التى سوف تعرف فى التاريخ الدبلوماسى الأمريكى بل والدولى ب Article قد قدمت كينان بشكل أوسع للأوساط السياسية وأثارت من حوله ضجة امتد أثرها وارتبطت بالسياسات الأمريكية التى حددت معالم مرحلة الحرب الباردة والتصورات التى حكمتها ٠

فمنذ أن بعث كينان تلغرافه الطويل ـ بدأ وزير البحرية جيمس فورستال يهتم شخصيا بأعمال كينان ، ونتيجة لذلك وبنفوذ فورستال ألحق كينان بعد عودته من موسكو بكلية الحرب ، وبسبب فورستال أيضا اختير كينان بعد ذلك لكى يرأس هيئة التخطيط الجديدة فى الخارجية الأمريكية ٠ وخلال عمله بكلية الحرب بعث له فورستال بورقة حول الماركسية والقوة السوفيتية أعدها أحد مساعديه المباشرين وطلب منه التعليق عليها ، الأمر الذى وجده كينان

صعبا ، فقد كانت الورقة جيدة اتفق كينان مع أجزاء منها وأجزاء اخرى لم تكن بالشكل الذى يمكن ان يعجب به كينان • وكان الموضوع كله مستحوذا على اهتمام كينان ومتابعته ، بحيث وجد أنه لا يمكنه أن يعالجه بكلمات احد آخر • لذلك أعاد كينان الورقة الى فورستال مقترحا بدلا من التعليق عليها أن يعالج الموضوع بلغته هو ، وهو ما رحب به فورستال •

وكانت نتيجة ذلك أن بعث كينان فى ٣١ يناير ١٩٤٧ ورقة للقراءة الخاصة لفورستال ناقش فيها طبيعة السلطة السوفيتية باعتبارها تمثل مشكلة رئيسية للسياسة الأمريكية، وجاءت الورقة استقراء أدبيا للأفكار التى كانت قد نضجت فى ذهنه وكان قد عبر عنها فى مراسلاته وخطبه خلال العامين الأخيرين • وقرأ فورستال الورقة وعقب عليها بالعبارة الآتية : « انها ورقة كتبت بشكل جيد جدا وسوف اقترح على وزير الخارجية أن يقرأها » •

وكان كينان قد تحدث فى بداية يناير أمام مجلس العلاقات الخارجية فى نيويورك حول نفس الموضوع ، وسأله هملتون أرمسترونج محرر مجلة « الشئون الخارجيه » Foreign Affairs ان كان لديه شىء مكتوب لنشره فى مجلته وفقا للخطوط التى تحدث بها ، وتذكر كينان الورقه التى قدمها لفورستال ، وحصل منه على موافقته على نشرها، ثم قدمها كينان للجنة التى تشرف وتعتمد نشر مثل هذه المقالات فى وزارة الخارجية ، واقترح كينان أن تنشر باسم مستعار ، ورغم أن اللجنة لم تر فى المقالة سببا يدعو لذلك فان المقالة نشرت باسم The Sources of Soviet Conduct وكان ذلك فى عدد المجلة يونيو ١٩٤٧ •

وما لبثت المقالة أن جذبت انتباه الصحافة والجمهور وبدأ كتاب يتساءلون ويشيرون الى كاتبها والى علاقته

بوزارة الخارجية ، كما بدأت مجلات وأجهزة أخرى فى اعادة طبعها ، وكان ما جذب الاهتمام والتعليق بوجه خاص عبارة « الاحتواء » Containment التى وردت فى المقال ، وبدأت هذه التعليقات تضعها فى مصاف « النظريات » كما ربطت بينها وبين السياسة الخارجية للادارة وبشكل خاص بمبـدأ ترومان ومشروع ماريشال • وبهذا الشكل نشـأت ، فيما يقول كينان « آساطير غير قابلة للتغيير ، أساطير تمثل لعنـة للمؤرخ » •

وقد آثار ما أحدثتـه المقـالة فزع وزير الخارجيـة ماريشال واستدعى كينان لمكتبه لمساءلته ، وكان ماريشـال من الرجال الذين يعتقدون « أن المخططين لا يتكلمون » اذ كان يؤمن بالنظام وتحديد المسئولية • وقد أوضح له كينان أن المقالة لم تنشر الا بعد أن قدمها للجنة المسئولة عن ذلك فى وزارة الخارجية وأنها وافقت عليها وأجازت نشرها • وقد ارتاح ماريشال لهذا الايضـاح ، وحمى علاقة كينـان بوزارة الخارجية بعد ذلك •

وعندما يتأمل كينان بعـد انقضاء سنوات عـلى مقاله ما تضمنه هذا المقال ومظاهر القصور فيه يعتبر ان اخطـر أوجه القصور هو عدم توضيحه أن ما كان يقصده باحتواء السـلطة السـوفيتية هـو الاحتـواء السياسى وبالوسـائل السياسـية • كذلك اكتشـف كينان أن بعض العبـارات وصياغتها مثل « الاحتواء الطـويل الأجـل الصـبور ولكن الحازم والنشـط للاتجـاهات التوسـعية السـوفيتية » أو « التطبيق الحذر والتيقظ للقـوة المضـادة فى سـلسلة من النقاط ذات التحول الجغرافى والسياسى المسـتمر » وجـد كينان أن أقل ما يقال عنها أنها غامضة وتحمل امكانية سوء تفسيرها •

أما نقطة الضعف الثانية التى تبينها كينان فى مقالته فقدكانت فى فشلها فى التمييز بين مناطق جغرافية متعددة ،

وعدم توضيحها أن الاحتواء الذى يتحدث عنه ليس هو بالضرورة الاحتواء المطلوب القيام به وتطبيقه فى كل مكان وبشكل ناضج • والواقع أن هذا كان يتفق مع الملاحظات التى أبداها كينان على مبدأ ترومان ، كما يتفق أيضا مع انتقاده للصياغات العامة فى تصور امكانات ذلك الارتباط الأمريكى ومداه ، وكان اعتراض كينان الرئيس على مبدأ ترومان ينصب على فشله فى ذلك التمييز أيضا •

ويوضح كينان ما كان يقصده من المقالة بانه كان فى الحقيقة نداء موجها الى كل من الليبراليين واليمينيين بأن يتقبلوا حقيقة أنه أيا ما كانت صعوبة مشكلة الثورة السوفيتية ، فان الحرب ليست شيئا لا يمكن تجنبه ، كما أن الحرب لا تمثل اجابة مناسبة على هذه المشكلة ، وأن غياب الحرب لا يعنى أن الولايات المتحدة سوف تخسر الصراع ، وأن ثمة أرضا وسطا للمقاومة السياسية والتى يمكن أن تمارسها الولايات المتحدة وباحتمال معقول بالنجاح •

غير أن نتيجة ورد فعل المقالة الفعلى لدى الأطراف المختلفة هو أن اليسار قد اعتبرها عبارة تخفى مخططات عدوانية ضد الاتحاد السوفيتى ، أما اليمين فقد هاجمها لأنه لم يرها عدوانية بما فيه الكفاية ولسلبيتها ولأنها لم تعد بالنصر ضد الشيوعية •

غير أن كينان لم يكن من السهل عليه مواجهة كل هذا النقد مجتمعا ، وكل ما كان يؤكده أن ما قاله فى مقالته لم يكن مقصودا به أن يكون نظرية ، وأنه ضد التفكير فى الشئون الخارجية وفقا لنظريات أكثر منه وفقا لمبادىء ، وأنه كان يريد أن يناقض التفكير الذى نشأ فى الولايات المتحدة والقائم على استنتاج أنه مادامت التنازلات التى قدمتها الولايات المتحدة أثناء الحرب وبعدها للاتحاد السوفيتى قد فشلت فى تحقيق تقارب وتعاون بين البلدين فان الحرب تصبح هى البديل • هذا الاستنتاج هو ما كان

كينان يحاول فى مقالته أن يناقشه وأن يختلف معه ، وهــو يعتبر نفسه أكثر الناس ادراكا لما تمثله القــوة السوفيتية بالنسبة للولايات المتحدة ، الا أنه فى نفس الوقت لم يكن يرى ضرورة للحرب بين البلدين أو أنها سوف تحقق كســبا سواء الان أو فى اى وقت آخر . ولهذا فان ثمــة طريقــة أخرى لمعالجة هذه المشكلة تســتهدف تفــادى كارثة حــرب عالمية اخرى تترك مجموعة الدول الأوربية أســوأ مما هى عليه . كما عبر عن اعتقاده بأن القادة السوفيت ليسوا فوق البشر أو الضعف ، فشأنهم شأن حكام الدول الكبرى لديهم تناقضاتهم الداخلية ومآزقهــم التى عليهم أن يعالجــوها . ولهذا كان كينان يحث على التعامل معهم بشكل حازم ولكن غــير عدوانى مع اتاحة الفرصــة للــوقت وجعــل الزمن يأتى بأثره .

ويقارن كينان بين الظروف التى كتب فيها مقالته فيما يتعلق بالقوة السوفيتية وبين ما تطورت اليه بعــد ذلك ، فيقول انه حين كتب مقالته كان النظام السوفيتى سواء فى حكمه الداخلى من حيث سيطرة ستالين المطلقة او فى سيطرته على أقطار اوربا الشرقية واغتراب الشيوعية فى الخــارج وخضوعها المطلق لآراء ستالين وللمصالح السوفيتية ، كل هذا كان يجعل النظام كما متماسكا ومتراصا ، غير ان هــذه الصورة المتماسكة ما لبثت بعد هذا أن اعتراها الضعف . بدأ هذا بخــلاف تيتو مع ســتالين وخــروجه عن المعســكر والسيطرة السوفيتية . ورغم أن هذا قد ظل هــو الحــادث المنفرد وسط الكيان السياسى السوفيتى ولم يؤثر كثيرا على بقية أجزاء الكتلة والعالم الشيوعى ، الا أنه حين بدأ النزاع السوفيتى الصينى فى التطور ما بين أعوام ١٩٥٠ ــ ١٩٦٢ ظهرت الخلافات على السطح فى شــكل صريح بين النظامين ، وأصبح الموقف داخل الحركة الشيــوعيــة الدوليــة مختلفــا بشكل أساسى . هــذا التطــور غــير أيضــا بشكل جــذرى الافتراضات التى كانت وراء مقالته ومفهوم الاحتواء كمــا عبرت عنه .

وبناء على هذا التطور ينتهى كينان بأنه اذا كان هو صاحب ومؤلف نظرية « الاحتواء » عام ١٩٤٧ فان هذه النظرية قد فقدت مبررها بموت ستالين وبظهور وتطور النزاع السوفيتي الصيني ، وقد جعله هذا يذهب الى حد القول : «انني أنكر بشدة أبوتي لأى جهود لاثارة هذهالنظرية اليوم وفي مواقف مختلفة تماما عن تلك التى ظهرت فيها» •

وثمة حدثان مهمان فى تطورات ما بعد الحرب مباشرة كان لهما تأثيرهما فى توجيه علاقات الشرق والغرب، ويسجل كينان فى مذكراته رأيه فيهما وان لم يكن قد لعب دورا هاما ومباشرا في تطوراتهما مثلما لعب فى الاعداد وصياغة مشروع ماريشال للنهوض الاقتصادى بأوربا الغربية ، ونعنى بهذين الحدثين الاتجاه الأوربى الذى بادرت به بريطانيا ومجموعة دول البينولكس لتكوين تحالف عسكرى فيما بينها ، وهو ما شجعته الولايات المتحدة وانتهى الى اقامة ما عرف بمنظمة حلف شمال الأطلنطى North Atlantic Treaty Organization

وكان رأى كينان منذ أن أعربت بريطانيا عن مبادرتها ــ وقبل أن تكتمل محادثات بروكسل والتى انتهت بعد ذلك فى ١٦ مارس ١٩٤٨ بتوقيع ما يعرف باتحاد بروكسل ــ أن القلق الذى تملك الأوربيين ليس فى موضعه ، وبدا له أن هذا هو الوقت الذى تبدأ فيه المناقشات حول أمور الدفاع والاستعدادات العسكرية • وقد وافق كينان على أن الأوربيين قد يكونون محتاجين الى شىء من التأكيد حول أوضاعهم الدفاعية ، ولكنه كان يرى خطرا فى ان تشكل هذه التأكيدات ما يمكن أن يشجعهم على تغليب الاعتبارات العسكرية ، فقد كان اعتقاده أن ما يجب أن يكون موضع اهتمام الأوربيين هو النهوض الاقتصادى والاستقرار السياسى الداخلى ، وأن التركيز على الجوانب العسكرية سيكون حتما على حساب النهوض الاقتصادى، بل ان التركيز على الجوانب العسكرية سوف يشجع الانطباع بأن الحرب

هى شيء حتمى ومن ثم يتحول الانتبــاه عن الأهداف الأكثر أهمية ·

من ناحيــة أخـرى كان من رأى كينــان أن التطورين اللذين ســببا اهتماما عصبيا شــديدا لدى الغرب واسرعا بخطوات واشنطون فى تأييد تكوين هذا التحالف الأطلنطى، ثم اجراءاتهم لاحراج الوجود الغربى فى برلين ، كان السلوك السوفيتى فى كليهما عملا دفاعيا ، وردا على النجاح المبدئى الذى حققه مشروع ماريشال وعلى الاستعدادات الجــارية على الجانب الغربى لانشاء حكومة ألمانية منفصلة فى ألمانيـا الغربية ·

أما الحدث الثانى فى تطورات ما بعد الحرب مبــاشرة والذى يسجله ويناقشه كينان باعتبار أهميتــه فى توجيــه العلاقات الأمريكية السوفيتية فهو هجــوم كوريا الشماليــة على كوريا الجنوبية ، وما أحدثه هذا من تأثير على التصورات الأمريكية على النوايا والأهداف السوفيتية ، ويصور كينان هــذا التأثير بأن الهجــوم الــكورى الشــمالى قد اعتبر فى واشــنطون عــلى أنه « مخطط كبير » Grand design من جانب القادة السوفيت لمد نفوذهم الى أجــزاء أخـرى من العــالم واستخدام القوة · وكان عدم توقع هذا الهجوم وعدم وجود انذار مسبق لدى الولايات المتحدة عنه قد ساعد على تصعيد الاتجاه نحو صبغ تفكير الحرب الباردة بالصبغة العسكرية ، ودفع الولايات المتحدة نحو اتجاهات يصبح معها أى تقــدير أو تفسير مختلف للنوايا السوفيتية أمرا غير مقبــول وغــير مرحب به ، كما شجع المخططين العسكريين نحو اتجاه حاربه كينان بمرارة ولمدة طويلة ولكن بلا جدوى، وهو الاتجاه نحو رؤية النوايا الســوفيتية كشيء مســتقل تماما عن الســلوك الأمريكى ، وفى هذا وجد كينان أنه من الصعب اقناع هؤلاء الرجال بأن ما تقرر موسكو أن تفعله قد يكون رد فعل لأمور فعلتها الولايات المتحدة ·

ويذكر كينان بأنه أيد منــذ البداية القرار الأمريكى بمقاومة غزو كوريا الشمالية لكوريا الجنوبية الذى بدا فى يونية ١٩٥٠ ولكنه فعــل هــذا عــلى افتراض آن الاجراء الأمريكى موجه فقط لغرض محدود وهــو : اعادة الوضــع الراهن لشبه القارة الكورية ، وان القوات الأمريكية حتى فى حالة النجاح العسكرى لن تتقدم آبعد من خط التقسيم الســابق عــلى خط عرض ٣٨ ، وهــكذا فاذا كان الوضــع الكورى يبرر اســتخدام القــوة الأمريكية لغرض محــدد ، الا أنه ليس مبررا للزج بالولايات المتحدة فى حرب عالميــة جــديدة ٠

أما المعانى التى يستخلصها كينــان بالنسبة للسياســة الأمريكية من الحرب الكورية فكانت خطورة ترك السياســة القومية تقررها الاعتبارات العسكرية وحدها ، فاذا كان الأمر قد ترك كلية للعسكريين ولما كان يدور فى تفكير ماك آرثر وهيئة أركان الحرب فى واشنطون ، ولم يفرض عليهم ضبط النفس من جانب القيادة السياسية فان كارثة كانت حتما سوف تحل ٠

وقد بلور كينان ما فعلته الحرب الكورية فى السياسة الأمريكية وأسلوب معالجتها فسجل فى أغسطس عام ١٩٥٠ « انه لم يحدث من قبل مثل هذا التشويش الكامل فى تفــكير الرأى العام فيما يتعلق بالسياسة الخارجيــة الأمريكيــة : ان الرئيس لا يفهمها والكونجوس لا يفهمها ، ولا الجمهور ولا الصحافة ، انهم جميعا يدورون فى متــاهة من الجهــل والخطأ والتى اختلطت فيها الحقيقة بالخيــال حول العــديد من النقاط ، ونشأت افتراضات لا مبرر لها حول صلاحية المقدمات ، وحيث لا توجــد نظرية معترف بهــا ولا ســلطة تتمسك بها ٠ فى هذه الحالة فان المؤرخ الدبلوماسى الذى يعمل من بعد غير مرتبط بالبيئة الحالية ، وهو وحده الذى سيكون قادرا على فض هذه العقــدة ، ويكشــف الجــوانب

الحقيقية والعناصر التى كانت تحكم هذا الوضع • وهكذا وكما يبدو لى ، فان أحدا فى مركزى (يعنى وضعه كمدير للتخطيط السياسى فى الخارجية) لا يستطيع آن يفعل الكثير ما لم يتحول أولا الى مؤرخ وأن يكسب ثقة الرأى العام من خلال دراسة الماضى وأن يقدم للرأى العام نظرة واضحة وأكثر شمولا للأحداث الجارية » •

★★★

وكان كينان مع نهاية عام ١٩٤٩ قد عبر للمسئولين فى الخارجية عام ١٩٤٩ عن رغبته فى الحصول على اجازة دراسية ابتداء من يونيو ١٩٥٠ تسمح له بالعودة الى نشاطاته الأكاديمية ، وتتيح له الوقت والحرية لتناول المشكلات ، التى أصبح من الواضح أن خلافات واسعة تقوم حولها بينه وبين المسئولين الكبار فى الحكومة • وهكذا كانت الأفكار التى سجلها كينان والتى حركتها فيه أحداث الحرب الكورية ، هى الأفكار والروح التى غادر بها واشنطون نهائيا فى نهاية أغسطس ١٩٥٠ متجها الى برنستون حيث استضافه روبرت أوبنهايمر الذى كان يرأس معهد الدراسات المتقدمة فيها Institute for Advanced Studies: وحيث كانت تنتظره حياة جديدة تقدم امكانات للتعبير الخلاق بأكثر مما عرف من قبل • بهذه الروح أقبل كينان على حياته الأكاديمية الجديدة ، وفى يومه الأول غمرته النشوة وهو يتجول فى أنحائها مستشعرا ما سيتاح له من وقت وحرية ، وشعر أنه الآن يستطيع فكره أن يتجه الى حيث تقوده قدماه • غير أن الأمور لم تسر على هذا النحو ، فلم تلبث قيود الواقع أن بددت هذا الوهم • وكان أول هذه القيود ما نشأ من أفراد وجماعات تطلب طلبات خاصة ، فبعضهم يطلب وظائف ، والبعض الآخر يطلب أن يقرأ مسودات ما كتبوه ، أو من يريدون أن يتعرفوا عليه أو أن يثرثروا معه حول كل شيء خلاف ما جاء من أجله الى

برنستون • وقد كان من السهل على كينان أن يرضى أغلب هذه الطلبات ، غير أنه لم يستطع ذلك مع نسبة ضئيلة ومتفردة منها جاءت غالبا عن طريق أصدقاء أو أقارب أو عن طريق أطفاله ، أو من طرف شخصيات هامة جدا فى الحكومة أو من لجان الكونجرس أو حكومات أجنبية ، أو من عروض درجات شرفية يتلوها بالطبع القاء خطب •

وكان أصعب هذه الطلبات تلك التى جاءت من أناس يشعر أنهم محتاجون فعلا للمساعدة ، أو تلك التى تثير قضايا يشعر بها المرء بشكل عميق ، وتلك التى حين يؤيدها المرء يشعر أنه يدعم صوته ويدعم امكاناته فى أن يكون مفيدا •

كان أول ما فكر فيه كينان فى برنستون هو أن يجمع حوله مجموعة من الدارسين الشبان لاعداد دراسة حول الخلفية الداخلية للسياسة الخارجية الأمريكية وحول ما يحدث للموارد المادية للقارة الأمريكية وحول ما يتطور اليه المجتمع الأمريكى وما هى المطالب التى ستفرضها البيئة الدولية على السياسة الخارجية الأمريكية فى الحقب المقبلة • كذلك بدأ بتحذير وبصيحة قدمها له أوبنهايمر « لا تنس أنه ليس هناك أصعب فى الحياة من ألا تجد أمامك الا صفحة بيضاء ، ولا شىء أمامك تفعله الا أفضل ما لديك » أما النصيحة فكانت أنه بدلا من أن يحاول كتابة أى شىء فانه عليه أولا أن يستقر فى الشهور الأولى ، وأن يقرأ بشكل واسع وفقا لبرنامج علمى يقدم له أساسا ثقافيا عريضا •

ويعترف كينان أنه لم يكن هناك أحكم من هذه النصيحة ويأسف أنه لم يستطع أن يتبعها • فقد خضع للضغوط الخارجية التى أملتها الأحداث المعاصرة وطلبات المشاركة فيها ، الأمر الذى جعل ما نصح به أوبنهايمر مستحيلا • ولكن لماذا استجاب كينان لهذه الضغوط ؟ تتلخص اجابته فى أنه لم يستطع أن يتقبل بأن لا يكون له دور يلعبه فى الأحداث الجارية ، ويذكر فى هذا تأثير أستاذة انجليزية

للتاريخ فى برنستون حذرته من أن يقع فى خطأ انشغاله بالتاريخ عن الاندماج فى شئون العصر • وهكذا كان كينان خلال هذه الفترة فى صراع بين الماضى والحاضر حيث انه لم يعط نفسه كلية لأحدهما وبحيث أصبح شبه مؤرخ وشبه معلق على الأحداث الخارجية •

وهذان الشاغلان وان كانا متصارعين الا أنهما متداخلان يعتمد أحدهما على الآخر ، فجزء من قوته كمؤرخ دبلوماسى يأتى من حقيقة أنه اندمج بشكل مسئول فى مشكلات الدبلوماسية المعاصرة ، أما قيمته كمعلق على الشئون المعاصرة فكانت فى جانب منها من اعتقاد الجمهور بأنه يعلم شيئا عن التاريخ •

ولأن مركز الدراسات المتقدمة فى برنستون كان هو الملاذ الأكاديمى له فى فترات انقطاعه عن العمل الحكومى ، فقد تحدث عنه بتعاطف وحب شديدين ، وكذلك عن الشخصيات التى عمل فيه معها وأثرت فيه • فهو يعتبر المركز كشىء فريد بين المراكز الأكاديمية العليا لامتياز الدارسين من زواره وتكرسهم وتكرس عقولهم لأعلى مستويات الحياة الدراسية ، فهو فقط مكان مكرس للبحث الفردى ، هادىء ومتقشف ومنكر للذات وبعيد عن المؤثرات التى تشتت الانتباه • وكانت الفروع الأساسية التى بدأ المركز عمله فيها هى : الرياضيات العليا والعلم الطبيعى وخاصة الفيزياء النظرية والتاريخ ثم أضيف اليهم فرع جديد هو العلوم الاجتماعية ، وكان المركز يؤكد نوعية العمل فيه من خلال التدقيق فى اختيار من يحصلون على منح دراسية فيه •

وطالما تلقى الباحث هذه المنحة ، فانه تصبح لديه الحرية الكاملة لمتابعة اهتماماته وعمله ، فاذا ما أضاع وقته ، وهو نادرا ما يحدث ، فان اللوم يقع على صحة اختياره وليس عليه • ولم يكن المركز يمانع فى أن يجتمع أعضاء الكليات

والباحثون الزائرون معا للمناقشات والندوات ، فكان المركز يقدم التسهيلات اللازمة ولكنه لا يأخـذ المبادرة فى تنظيم هذه النشاطات • وكما عبر أوبنهايمر فان المركز حريص على أن « يجرد هؤلاء الناس من أى عذر لعـدم قيـامهم بما جاءوا من أجله » •

وشأن الوضع فى أى أسرة فان الحياة الدراسية تعتمد على النموذج وعلى القدوة فى المقام الأول ، وبالنسبة لكينان لم يكن هناك مثل رائع خلال اجازته الدراسية فى برنستون مثل أروين يانكوفسكى الذى كان واحدا من أعظم المؤرخين فى كل زمان ، كان يجمع بين العلم الغـزير وروح المـرح الثرية الدافئة وحب الاستطلاع الذى لا نهاية له والموضوعية والكرم الذى يميز العلم المفطور على الاستعداد للنقـاش • ومن هنـا كان الأثر الذى تركه يانكوفسـكى عـلى كينـان لا يمحى • ويذكر كينان أنه حين انتهى من دراسته « روسيا تترك الحرب » قدم له مسودته ورجاه أن يقرأها • وبعـد فترة دعاه يانكوفسكى على عشاء أعده بنفسه وراح يناقشـه فيه من زاوية ذوق الكتابة التاريخية الأمر الذى كان بالنسبة لكينان نقدا بناء ومفيدا لم ينسه •

كذلك كان فى المركز خلال اقامة كينـان فيـه ألبرت أينشتين ، الذى كان يدرك شخصية كينان ويعلم بوجوده • وكانا فى بعض الأحيان يتبادلان الملاحظات ولكنهما لم يتزاورا قط • ويجد كينان صعوبة فى تفسير ذلك ـ فهـو لا يفهم شيئا فى اهتمامات أينشتين العلمية وعلى هذا فلم يكن لديه شىء يراه من أجله • كما كان كينان مدركا مدى الضغوط التى تقع على آينشتين باستمرار من الزوار سواء من ذوى النوايا الطيبة ، أو من الفضـوليين من كل نـوع ، ولم يرد كينان أن يضيف عبئا جديدا عليه بزيارته له • وانتهى الى أن أفضل طريقة لـكى يعبر له عن احترامه هـو أن يتركه وشأنه ، فضلا عن تقدم أينشتين فى السن وارهاقه ، فلم يكن

من المحتمل أن تضيف لقاءاتهما له علما عن روسيا ، كما كان كينان واثقا أنه لن يتعلم من أينشتين شيئا عن الفيزياء أو الرياضيات خلال زيارة مجاملة ·

★★★

غير أن الشخصية التي يتوقف عندها كينان كثيرا من بين الشخصيات التي التقى بها في برنستون هي شخصية روبرت أوبنهايمر ، والتي رآها شخصية خصبة متعددة الجوانب ، فهو بشكل ما شاب جدا وبشكل آخر رجل متقدم في السن ، وهو في جانب منه شاعر ، وفي جانب آخر عالم · وفي وقت ما فخور وفي وقت آخر متواضع ، وهكذا كان يمثل بالنسبة لكينان مجموعة من المتناقضات العجيبـــة ، أما الشيء الذى لا ينازع فيه فهو عظمتـــه ، فعقله كان ذا قدرة غـــير عادية وفي كياسته وفي سرعته على رد الفعل ، وكان من القلائل الذين تجتمع في شخصياتهم الثقـــافة والأخـــلاق والمعـــرفة العلمية الواسعة مع علم غزير في الانسانيات واهتمام نشط وعميق بالشئون السياسية والدولية المعاصرة · وكان دائما يوصف وينقد بأنه متعجرف ، وربما كان كذلك ، ولكن كان هذا في تفسير كينان يعكس في المقام الأول أثر الناس من حوله اكثر مما يعكس الدوافع الشخصية لشخصيته · فما لا شك فيه أن سرعة وحدة ذهنه جعلته لا يصبر على ما يبدو من سطحية ما يصـــدر من الآخـــرين ، غير أنه تحت ســـطح عدم الصبر هذا تكمن واحدة من أرق الطبائع مع تطلع كبير للصداقة والعاطفة واعتقاد عميق يندر أن تلمسه في شخص آخر عما يتصوره في الأخوة والزمالة التي يجب أن تجمع المشتغلين بالدراسات العليا ، ولهذا فقد كان دائما يعتقد مع بوخارين أن الصداقة العقلية والفكرية هي أعمق وأروع أشكال الصداقة بين الرجال ، ولهذا أيضا فان أعمق مأساة في حياته ــ في ظن كينان ــ لم تكن المحنة التي تعرض لها فيما يتعلق بولائه رغم ما كان يمثله هذا بالنسبة له ، وانما

لأنه وجد أن أعضاء المركز لم يكونوا دائما قادرين على أن يحققوا لبعضهم البعض شيئا موازيا لما كانوا يحملونه من احترام لانجازاتهم العلمية • وكانت أغلى أحلامه هى أن يتحقق بين أعضاء الوسط الأكاديمى A Certain Rich and Harmonious fellowship of Mind نوع ما من زمالة الفكر وهو ما حاول بحماس أن يبحث عنه ويحققه فى برنستون وكان افتقاده مصدر انزعاجه وقلقه •

وفيما يتعلق بالاتهامات التى وجهت له حول ولائه ، فان التصرفات التى صدرت من جانبه اتخذها متهموه ذريعة لهم كانت تصرفات حمقاء حقا ، ومخالفات تافهة وهو ما أدركه أوبنهايمر نفسه ، ولكنها لم تكن تصرفات تتضمن تسليما لأى معلومات لأى حكومة أجنبية ولم تكن دليلا لاى شك فى ولائه • وكانت هذه التصرفات معلومة بالولايات المتحدة قبل أن تعهد اليه برئاسة اللجنة الاستشارية العلمية، ولم يكن وراء احياء هذه الاتهامات ضده فى الخمسينات الا الحقد الشخصى والعداوات الشخصية التى لا تخجل والتى لا قلب لها • ويتذكر كينان حديثه مع أوبنهايمر فى يوم من أيام الآحاد فى منزله حينما سأله كينان ـ خلال محنة لجان الاستماع العامة حول صلاحيته للاستمرار فى رئاسة اللجنة الاستشارية العلمية ـ لماذا يستمر فى العيش فى هذا البلد فى وجه كل هذه المضايقات وفى وقت يستطيع أن يكون فيه مكرما فى أماكن أخرى من العالم ، فقد حصل على الدكتوراه من هولندا وله أصدقاء عديدون فى العالم الأكاديمى الأوربى ، ولم تكن هناك جامعة فى أى مكان فى العالم الا وترحب به وتفتح له ذراعيها • وازاء سؤال كينان وقف لحظة والدموع تنهمر من عينيه وهو يقول : «عليه اللعنة • انى أحب هذا البلد» • وقد كان هذا صحيحا • فمع كل ما يثبط الهمة ، ومع كل سوء الفهم الذى لاقاه من جانب حكومته ومن قطاعات من الرأى العام الأمريكى ، فان أوبنهايمر كان وظل دائما شخصية أمريكية حتى الأعماق •

فى خريف عام ١٩٥١ حدث فى حياة جورج كينان تحول جديد أعاده الى الحياة العملية والدبلوماسية والى المنصب الذى أعده له تدريبه العلمى والأكاديمى طوال الخمسة والعشرين عاما الماضية ٠

ففى خريف هذا العام تلقى كينان مكالمة تليفونية من وزير الخارجية دين اتشيسون تفيد بأن السفير الامريكى فى موسكو آلانى كيرك ـ سوف يعتزل ، وأن الرئيس الامريكى ترومان يريده أن يحل محله فى هذا المنصب ٠ وكان العرض فى بعض وجوهه مقبولا لكينان وغير مقبول من وجوه أخرى فانه كان قد بدأ فى مشروعه لدراسة المؤثرات الداخلية على السياسة الخارجية الأمريكية ، وجمع حوله بذلك مجموعة من الباحثين الشبان ، وكذلك شعر أن لديه التزاما تجاههم بعد أن جاء بهم الى برنستون لمدة عام ، الى جانب هذا فقد كان خلافه مع شخصيات الحكومة الأمريكية قبل مجيئه الى برنستون فى ذهنه ، بالاضافة الى مخاوفه من تولى منصب هام وحساس كسفير فى موسكو وأن يمثل سياسة لا يفهمها تماما ولا يعتقد فيها ٠ على أنه من ناحية أخرى شعر أنه مازال موظفا حكوميا ولم يكن من اللائق أن يرفض تكليفا له خاصة اذا كان الرئيس طرفا فيه بشكل مباشر ٠ كذلك لم يكن من السهل عليه أن يرفض مهمة سفير فى الاتحاد السوفيتى ، وهى مهمة أعدته لها حياته العلمية كلها ٠ ولهذا اقترح كينان على اتشيسون أنه فى الوقت الذى يضع نفسه فيه تحت تصرف الادارة ويذهب الى أى مكان يريدونه فيه ، فانه يود أن يبحث الرئيس حوله عن شخص آخر أكثر قربا منه وأكثر اطلاعا على أفكاره وسياساته لتولى هذا المنصب ٠ غير أن الرد جاءه بعد أيام أن الرئيس مازال مصرا عليه ٠ وهكذا قبل كينان وأعلن عن تعيينه فى ٢٧ ديسمبر ١٩٥١ ٠ وفى أبريل ١٩٥٢ وبعد أن وافق الكونجرس على تعيينه بدأ كينان زياراته الرسمية وكان أولها زيارته للرئيس ترومان ، والذى كان قد أعلن عن

عزمه عن عدم ترشيح نفسه مرة ثانية للرئاسة • ويروى كينان عن هذا اللقاء أنه وجد ترومان فى حالة استرخاء ، وأشار الى أنه يشاركه وجهات نظره حول تحليل مواقف القادة السوفيت ودوافع تصرفاتهم ، وأنه لم يعتقد أبدا أنهم يريدون حربا عالمية ، غير أنه بخلاف هذه الملاحظات فانه لم يعطه أية تعليمات •

كذلك أعرب كينان عن رغبته فى الاجتماع برجال وزارة الخارجية لكى يناقش معهم ويستمع منهم حول المواقف والاتجاهات الأمريكية • وقد عقد الاجتماع فى ١٨ أبريل وحضره وزير الخارجية ، غير أنه لخيبة أمل كينان وجد انه ترك له كلية تحديد اتجاه المناقشة وكان لسان حال الحاضرين يقول انه وقد طلبت أن تجتمع بنا وها قد اجتمعنا فماذا تريد منا ؟ • وقد أشار كينان الى أنه بالنظر الى حساسية مركزه كسفير فى موسكو فان كل عبارة ستصدر عنه سوف تأخذها الحكومة السوفيتية كتعبير عن السياسة الأمريكية ، وحيث انه بقى بعيدا عن وزارة الخارجية لمدة عام ونصف فانه من المهم أن يتلقى تلقينا عن أهداف ومواقف السياسة الأمريكية والمنطق الذى يحكمها • وقد تلت هذا مناقشة حول السياسة الأمريكية تجاه ألمانيا وآسيا ، ونزع السلاح • وتتضمن يوميات كينان ملاحظات عن هذا الاجتماع واتجاه المناقشات فيه فيقول : لقد دخلت هذا الاجتماع لا لكى أقدم اقتراحات حول السياسة ولكن لكى أجد ما يجب أن أعلمه عنها ، ومع هذا فانى لا أستطيع أن أخفى قلقى من الاطار العام لما قيل لى • فكما فهمت فاننا نتوقع أن نكون قادرين على أن نكسب أهدافنا سواء فى الشرق أو الغرب بدون أن نقدم تنازلات أيا كانت لوجهات نظر خصومنا • ويبدو لى موقفنا مشابها لسياسة الاستسلام بلا شرط فى الحرب الأخيرة • وقد يكون هذا الموقف ممتازا اذا كنا حقا أقوياء بشكل مطلق ••• وأشك تماما فى أن هذا صحيح • وكان تفكيرى أن علينا أن نتأمل بحرص تام هذه الأمور وأن ننظر

فيما اذا كان من الأفضل محاولة حل على الأقل بعض هـذه المشكلات بالاتفاق مع خصومنا أكثر من التحدى الكامل لهم ٠

الى جانب هذه الانطباعات التى خرج بها كينان من هذا الاجتماع فقد أجرى أيضا مناقشات بعد ذلك مع رجال الخارجية حول السياسة الأمريكية تجاه تطوير الاسلحة النوويه ، وقد اعتبر كينان ان هـذه الأسلحة فى معانيها النهائية هى أسلحة انتحارية ومدمرة لدرجة لا تبررها اية أهداف قومية ، ولذلك عارض كينان اقامة الوضع الدفاعى للولايات المتحدة على أساس من هـذه الأسلحة وخاصة على تبنى مبدأ البدء باستخدامها The first use عسكريا ٠ وكان كينان قبل ذلك بعامين قد دعا صناع القرار الأمريكى العسكريين والسياسيين بلا جدوى أن يعيدوا النظر فى قرار الاستمرار فى تطوير القنبلة الهيدروجينية ، ثم القيام بمحاولة أخرى فى مفاوضات دولية للنظر فى تحريم هـذه الأسلحة وكل الأسلحة ذات التدمير الشامل ٠ كذلك لفت كينان النظر الى المأزق الذى سوف يظهر بعد ذلك أمام واضعى السياسة الأمريكى اذا ما تولدت منافسة لا نهائية حول تطوير هذه الأسلحة ٠

ومع رحيله الى موسكو وجد كينان حتى أقرب أصدقائه فيما يقول : « أسرى للتفكير المسطح وغير المرن للبنتاجون ، وهو التفكير الذى أعطى للحسابات الرياضية الزائفة لقوة هذه الأسلحة نوعا من القيمة المطلقة واستبعد جميع العناصر الأخرى الممكنة من المعارك باعتبار أنها ليست لها أية أهمية يمكن اثباتها أو الرهان عليها » وقد كان هـذا الخلاف الفلسفى بين نظرة كينان وهذه النظرة عميقا بشكل يحول دون قيام أى تقارب فكرى حتى مع أناس شاركوه فى الماضى وجهات نظره حول الشئون الدولية والسياسية الأمريكية بوجه عام ٠

ويسجل كينان انطباعاته التى عاد بها الى برنستون بعد أن أتم زيارته الرسمية فى واشنطون فيقول انه عاد الى برنستون وهو يشعر بالوحدة بشكل كبير وبدا له أنه لم يلق أحدا فى واشنطون يستطيع أن يناقش معه الأمور بشكل كامل وصريح وفى ضوء نظرة وفهم مشترك ، وأنه اذا كان الأمر كذلك فى واشنطون فلن يكون هناك مثل هذا الشخص فى موسكو ، وبدا له أنه أرسل فى مهمة لكى يقوم بلعبة لا يستطيع أن يكسب فيها ، وأن عليه أن يخفى ذلك عن العالم وأن يتحمل فى نفس الوقت مسئولية أى فشل • وتخيل فى الوقت نفسه أنه ليس الشخص الوحيد الذى يعمل تحت هذه الظروف المعوقة فى مهنة الدبلوماسية الغريبة ، وأنه يبدأ مهمته بقلب ثقيل وخاوى اليدين بلا تعليمات وبلا معين فيما كان بالتأكيد أكثر الأهداف الدبلوماسية أهمية وحساسية وفى هذا المنعطف الحاسم •

وقد سجل كينان هذه العبارات فى يومياته فى ٢٢ أبريل عام ١٩٥٢ دون أن يعلم بالكارثة التى سوف تنهى مهمته الجديدة فى موسكو بالفشل وكانت دليلا على قوة الهاجس الذى تملكه وعبر عنه بالعبارات السابقة •

بخلاف القضايا السياسية والدولية التى سجلها كينان خلال مهمته كسفير فى موسكو ، حرص أيضا على ان يسجل مظاهر حياته العامة فى موسكو مثل زيارته لمتاحفها ومسارحها ومشاهداته للكلاسيكيات الروسية وهى تمثل على خشباتها وما يذكره وبشكل لا يقل أهمية عن جولاته على قدميه فى حدائقها العامة على نهر موسكو حيث يحتشد على جنباته آلاف الموسكوفيين ، يسيرون على أقدامهم يتنسمون هواء الصيف ويرتادون دور السينما والمؤسسات الترفيهية •

وهو يعلق على ما أثارته فيه هذه الجولات ووجوده بين افراد الشعب الروسى بقوله : « لم أتطلع أبدا بأكثر من هذا الوقت لميزة أن أكون ولو لوقت قصير جزءا من هؤلاء الناس للحديث معهم ومشاركتهم حياتهم · فلأكثر من حقبتين كانت روسيا فى دمى ، كأن ثمة صلة روحية غامضة لا أستطيع تفسيرها حتى لنفسى ، ولم يكن هناك شيء يستطيع أن يمنحنى رضا أعمق من الانغماس فيها » ·

وكما جاء كينان من واشنطون الى منصب السفير مهموما تملؤه الهواجس حول مصير مهمته فان حياته العمليه قد ضاعفت من ذلك · فمنذ أن بدأ مهمته فى موسكو ظل يتابع تصاعد حملات الدعاية السوفيتية ضد السياسة الأمريكيه وضد الناتو ، ولكنه كان يسأل نفسه ان كانت الولايات المتحدة قد ساهمت من خلال تركيزها على الطابع العسكرى لسياساتها وبياناتها فى اذكاء هذه الحملات وفى اعطاء الانطباع بأن الولايات المتحدة تريد الحرب وأنها استقرت على أنه لا بديل عنها وأنها فقط مسألة وقت قبل أن تطلقها · وقد وجد كينان أن هذا قد أدى بدوره الى تأكيد الانشغال الروسى التقليدى بمسائل الأمن ، ومن هنا كانت دعوة كينان لحكومته أن تعمل على أن تقيم توازنا مناسبا فى سياساتها بين الاعتبارات السياسية وأن لا تدع آمال المحافظة على السلام تتضاءل وذلك من خلال موقف ان كان يرى امكانية الحرب الا أنه لا يعتقد فى حتميتها · ويقول كينان ان دفاعه عن مثل هذا الموقف ينبع من ايمانه بأن أية حرب بين روسيا والغرب ستكون كارثة نهائية ومؤكدة ولا يمكن علاجها ، وعلى هذا كان يعتقد أن الأمل الوحيد يكمن فى حصر الصراع بين الشرق والغرب فى المجال السياسى ·

غير أن دعوة كينان الى سياسة تعتمد على التقليل من الاعتبارات العسكرية والحصار العسكرى للسوفيت من خلال القواعد العسكرية الملاصقة لحدوده ، لم تجد ، فقد لاحظ

كينان أنه عاما بعد عام كان يتزايد تحريك القواعد الأمريكية الى الحدود الروسية وترسل الوحدات البحرية الأمريكية فى مهمات لا فائدة منها الى البحر الأسود، ويحتفظ بقواعد بحرية وعسكرية فى باكستان وأوكيناوا بصورة لا يبدو معها أى مجهود لموازنة هذا مع الثمن السياسى ، كذلك استمرت أعمال المخابرات الحربية كما حدث فى حادث الطائرة U 2 التى أحرجت الشخصية السوفيتية الوحيدة بعد ستالين التى كان يمكن معها صياغة أساس صلب التعايش السلمى ٠

ولم يكن عجز كينان فى أن يؤثر فى سياسة حكومته يرجع الى خطئه فيما أوصى به ، أو فى الطريقة التى صاغ بها توصياته وانما ينبع أساسا من حدود القاعدة التى صدرت عنها ٠

وكان التيقن من هذه الحقيقة هو الذى قلل من حماسه فى الشهور التالية لأن يبقى فى مهنة تتحكم فيها السلبية وعدم التخصص فى القضايا والذكاء التكتيكى أكثر مما يتحكم التحليل الجاد ٠

وقد تضافر مع هذا الفشل السياسى سوء الحظ الشخصى ، فخلال مهمة قام بها كينان لحضور أحد الاجتماعات فى برلين التف حوله المراسلون الصحفيون فى مطار برلين وسأله أحد المراسلين عن نوعية الحياة التى يحياها الدبلوماسيون الأجانب فى موسكو ، ويبدو أن السؤال قد استفزه حيث لم يكن يخلو من رغبة فى الاحراج ، ورد كينان بأن حياته فى موسكو تشبه نوع الحياة العامة التى كان يحياها فى برلين خلال الحرب الأخيرة ٠ وقد اعتبرت الحكومة السوفيتية هذه الملاحظة تجريحا وعملا عدائيا للاتحاد

السوفيتي ورأت فيه تشبيه وضع الأمريكيين في موسكو بذلك الذى مر به من ١٩٤١ ــ ١٩٤٢ في ألمانيا النازية ، وهكذا اعتبرته الحكومة السوفيتية شخصا غير مرغوب فيه وطلبت استدعاءه من منصبه كسفير للولايات المتحدة في الاتحاد السوفيتي ·

★★★

وهكذا انتهت هذه الفترة من حياته ، وعاد الى واشنطون بعد أن اعتزل العمل الدبلوماسى والحكومى وعاد من جديد لحياته الأكاديمية في برنستون ــ ولا يفوت كينان أن يسجل في هذه الفترة ملاحظاته عن شخصيتيها الرئيسيتين : وزير الخارجية دالاس والرئيس أيزنهاور ، ويلخص كينان وجهة نظره في دالاس فيقول ان ضعفه يكمن في المجال الشخصى أكثر منه في المجال الفكري أو المهنى ، فنقاط ضعفه لا تصدر عن كره للآخرين أو خبث أو لؤم في روحه نحوهم وانما من الافتقار الى الاهتمام بهم أو الحرص عليهم كبشر ، فقد كان يميل الى المبالغة في الطابع الفكرى والتقليل من الطابع الشخصى في ممارسته لمهام منصبه · ولا يعرف كينان ان كان دالاس مدركا للثمن الذى دفعه في تأثيره على اتجاهات الآخرين أم لا ·

أما دوايت أيزنهاور فقد كان في رأى كينان ذا صفات شخصية مناقضة تماما لصفات وزير خارجيته الذى كان أيزنهاور بالنسبة له رجلا صعبا لكي تفهمه ، وكان حقا وظل في ضوء التاريخ واحدا من أكثر الشخصيات غموضا في الحياة الأمريكية العامة ، فقليل من الأمريكيين من أضفى عليهم بشكل ليبرالى مسئولية القيادة ، وقليل منهم من أبدى مثل هذا المقت لممارسة القيادة · ونظرته للرئاسة تشبه بشكل أكثر الاطار التقليدى لرئيس الدولة الأوربى ، أكثر مما تشبه رئيس دولته ، ففيما يتعلق بمفهوم الرئيس الذى

يمثل الوسط الأعلى والذى يقف وسط السياسة يوفق بين الناس ويجمعهم معا ، ويساعدهم على التوصل الى توافق فى الآراء ، ويخفف من الحدة فانه فى هذا كان يمكن أن يمثل رئيسا متوجا • وقد جمع فى شخصيته وأسلوبه ومظهره كل ما يحب الأمريكيون أن يصوروه كفضائل وطنية • وكان ثمة ميل فى بعض الدوائر الى النظر الى أيزنهاور كشخص مصطنع فكريا وسياسيا قادة الحظ والحب التقليدى للناخب الأمريكي للزى العسكرى لأن يقف على قمة الحياة السياسية الأمريكية • ويعتقد كينان أن هذا الانطباع خاطىء ، فقد كان فعلا رجلا ذا ذكاء سياسى حاد خاصة فيما يتعلق بالشئون الخارجية ، أما عن أنه استخدم هذا الذكاء بشكل فعال فهذا شىء آخر ، ولكنه كان حتما يمتلكه •

بعد انتهاء عمل جورج كينان كسفير فى موسكو كان ثمة حادثان بارزان فى حياته العملية والأكاديمية وهما : دعوة جامعة اكسفورد له لقضاء عام دراسى فيها كأستاذ فى عام ٥٧ ـ ١٩٥٨ ، ثم دعوة الاذاعة البريطانية له فى نفس الفترة ، لكي يلقى مجموعة محاضرات سنوية تنظمها وتعرف باسم محاضرات ريث Reith lectures •

وقد ألقى كينان ست محاضرات فى السلسلة ، تناول فى الحديث الأول ظاهرة التقدم الاقتصادى الذى كان الاتحاد السوفيتي يحققه ، وحاول فيها أن يخفف من ردود الفعل المبالغ فيها والمحذرة التى ظهرت فى الغرب تجاه هذه الظاهرة ، وفى الحديث الثاني تحدث عن الحالة الذهنية للقادة السوفيت كعامل يقع فى قلب الخلافات بين الشرق والغرب وهاجم بعنف الميل فى الغرب الى الاعتقاد بأن هذا الوضع يمكن أن يتغير بشكل مفاجىء من خلال لقاءات أو اجتماعات قمة • أما الحديث الخامس فقد خصصه لمسألة علاقات روسيا والغرب بالعالم النامى وكان محاولة منه لكى

يضع الاهتمام الروسى ونشاطه فى العام الثالث فى الاطار الصحيح ، حذر من اعتبار آن هذا شىء غير طبيعى ومهدد ·
أما الحديث الأخير فكان حول شمال الأطلنطى حيث دعا فيه آن لا يجعل التحالف من أتباع موقف القوة حائلا لمفاوضات تجرى مع السوفيت ·

واذا كانت هذه الأحاديث غير ذات طبيعة استثنائية ولم تثر كثيرا من الجدل ، فان الحديثين الثالث والرابع كانا ذوى طبيعة متفجرة ، ففى الحديث الثالث عالج كينان المشكلة الألمانية من زاوية محاولات وضع حد لتقسيم ألمانيا · فى هذا الحديث ناشد كينان الغرب « ··· أن لا يوهم نفسه بأنه يمكن تحقيق تسوية للمسألة الألمانية غدا ، أو أن يقدم تنازلات من جانب واحد لتحقيق هذه التسوية ، وندائى هو أن نتذكر أن أمامنا مشكلة يجب آن تحل عاجلا أو آجلا ، وعاجلا أفضل من آجلا ، وأن نفعل أفضل ما لدينا كى تصبح المواقف التى نتبناها فيما يتعلق بذلك هى فى كل الاوقات بناءة ومستبشرة بقدر ما نستطيع » ·

أما الحديث الرابع فقد تناول سباق التسلح النووى ومشكلات أوربا العسكرية ، وأكد فيه على وهم سباق التسلح النووى وأخطاره ، وهو وان كان يقبل احتفاظ الغرب بهذه الأسلحة فلكى تكون كرادع فقط وليس لكى يقيم الغرب وضعه الدفاعى على أساسها ، وفند معظم التفكير الذى كان يستند عليه تشجيع هذه الأسلحة ، وعبر كينان عن عدم ثقته كلية فى الحسابات والتقديرات القائمة حول هذه المسألة وعن اعتقاده أن أحدا لا يعرف حقيقة آثار الاستخدام الفعلى لهذه الأسلحة وعن ارتجافه من الآثار المحتملة لاستمرار التنافس حول هذه الأسلحة وتساءل فى تصوره لهذه الآثار عن الحياة التى يحكم على البشر بها من جراء هذا السباق « هل علينا أن نلجأ كمخلوقات يتملكها الخوف من وسيلة

دفاعية الى أخرى كل منها أكثر كلفة واهانة من التى سبقتها، يروعنا ويسوقنا التهديد الى المخابىء يوما محطما مدننا فى اليوم التالى ، محاولين أن نحيط أنفسنا بدروع الكترونية متطورة فى اليوم الثالث ، مهتمين فقط بأن نطيل حياتنا فى الوقت الذى نضحى فيه بكل القيم التى يمكن أن تجعل للحياة قيمة لكى نحياها ؟ فاذا كان هذا هو أفضل ما يحمله المستقبل لنا فان ذلك سوف يغرينى بأن أشترك مع هؤلاء الذين يقولون : « دعونا نجرد أنفسنا من هذا السلاح تماما . دعونا نعلق آمننا على رحمة الله وعلى ضمائرنا الطيبة وعلى هذا الجانب من حسن الادراك ومن الانسانية والذى يمتلكه حتى خصومنا ، وعندئذ دعونا نسير كالرجال ورؤوسنا مرفوعة » ..

وواصل كينان فى هذا الحديث تصويره لأخطار الأسلحة النووية وخطأ الاعتماد عليها فى توجيه السياسة الخارجية « ان الغاية الحقيقية للعمل السياسى هى قبل كل شىء التأثير على المعتقدات العميقة للناس . ولكن هذه الأسلحة الذرية لا تحقق هذا . ان الصفة الانتحارية لهذه الأسلحة تجعلها غير ملائمة سواء كعنصر يدعم الدبلوماسية أو كأساس للتحالف . مثل هذا السلاح هو ببساطة ليس السلاح الذى نستطيع به ان نؤيد بشكل مفيد ما تتطلع اليه سياستنا الخارجية كما أنه ليس السلاح الذى يمكن به لأحد أن يهب للدفاع عن أصدقائه .. ان وضعا دفاعيا يقوم على سلاح انتحارى لا يفيد فى المدى الطويل الا فى أن يشل السياسة القومية ، وأن يقوض التحالفات وأن يدفع بشكل أعمق وأعمق الى جهود لا أمل فيها لسباق التسلح » . وقد حذر كينان فى هذا الحديث بشكل خاص من تطوير الاعتماد على ما يسمى بالأسلحة التكتيكية النووية ، ووصفها بأنها « مدمرة لدرجة تمرض الخيال » وتساءل عن فائدة حرب تجرى فى أوربا بأسلحة بهذه الطبيعة مبينا أن الوقت قد حان للكف عن رؤية الحرب فى ضوء الانتصار والهزيمة فقط ،

فالحرب الحديثة فى تقديره « ليست فقط أداة للسياسة ، انها خبرة وتجربة فى حد ذاتها • انها تؤثر فيمن يمارسها بغض النظر عما اذا كان سيخسر أم يكسب هل يمكن حقا أن نفترض أن أوربا القديمة المسكينة والتى صفعت بشكل غادر وعميق بآثار الحربين الماضيتين فى هذا القرن ، تستطيع أن تصمد لحرب أخرى وبطبيعة أكثر رعبا ـ دعونا بكل الوسائل نفكر مرة واحدة ليس فقط فى المعادلات الرهيبة للخسائر العسكرية المحتملة ، ولكن دعونا نفكر فى الناس كما هم : فى حدود قوتهم وآمالهم وقدرتهم على المعاناة وعلى الايمان بالمستقبل • دعونا نسأل أنفسنا بكل جدية عما سيتعرض للتدمير اذا ما اشتعلت الحرب للمرة الثالثة فى أوربا فى فترة نصف قرن » •

اما الحدث الثانى فى حياة كينان العملية بعد اعتزاله العمل الحكومى فقد كان استدعاؤه للعمل كسفير للولايات المتحدة فى يوغوسلافيا • ويروى كينان انه مع يناير عام ١٩٦١ كان خارجا من احدى محاضراته فى جامعة ييل حين لمح طالبا يتحدث فى التليفون العام للجامعة ، ورأى الدهشة على وجه الطالب حين رآه أمامه ووجده يقول : «مستر كينان رئيس الولايات المتحدة يريد أن يتحدث اليك » وبالفعل كان الرئيس الأمريكى جون كنيدى الذى انتخب فقط منذ ثلاثة أسابيع يطلبه لكى يسأله ان كان مستعدا لأن يقبل تعيينه فى بولندا أو يوغوسلافيا • وقد عبر كينان عن امتنانه وطلب مهلة لكى يفكر فى الأمر • ومع نهاية اليوم طلب كينان الرئيس وأبلغه أنه يفضل يوغوسلافيا •

ويتذكر كينان أن هذه لم تكن المناسبة الوحيدة التى اتصل فيها بكنيدى ، فخلاف الحدث القديم حين استقبله فى براج خلال الحرب كان كنيدى خلال مرحلة دعايته الانتخابية للرئاسة قد كتب له خطابا حول رأيه فى المحاضرات التى ألقاها فى لندن ، وبعدها بأيام كتب له حول

مقالة قرأها له فى مجلة فورين افيرز ، وبعد ذلك بعام وقبل أيام من توليه منصب الرئاسة كتب له كنيدى خطابا بخط يده حول حديث اذاعى كان كينان قد ألقاه فى اذاعة الـ BBC البريطانية جاء فى الخطاب : « لقد أثر فى الحديث قبل كل شىء بتجرده من العاطفة وما تميز به من حسن الادراك » .

كان كينان فى قبوله عرض الرئيس الأمريكى مدركا للخلافات التى بينه وبين الرسميين فى واشنطون والتى عكستها محاضرات ريث ، وهى العلاقات التى أوضحت انه غير مهيأ لان يكون مستشارا لهذا الرئيس او غيره حول مشكلات الحرب الباردة . وقد كان قبوله لان يكون مستشارا لهذا الرئيس أو غيره حول مشكلات الحرب الباردة . وقد كان قبوله لأن يمثل بلاده فى الخارج يعنى قبوله للسياسة الرسمية لبلاده حول مشكلات أوربا الكبرى والحرب الباردة وأن يعمل أفضل ما عنده فى هذا الاطار . على أنه من ناحية أخرى قدر كينان أن العلاقات مع يوغوسلافيا تقع فى منطقة تغير بشكل حاد ومباشر هذه المشكلات بالاضافة الى هذا كان هناك العنصر الشخصى والانسانى الذى جعل كينان يشعر بالرضا أن يطلب منه العمل مرة أخرى . فقد كان من الطبيعى ألا تسعده الطريقة التى أنهى بها خدمته الحكومية عام ١٩٥٣ ، ولهذا رحب بالفرصة لأن يخدم مرة أخرى وفى منصب متواضع ثم يعتزل مرة أخرى اذا ما شاء بشكل مشرف .. بالاضافة الى هذا كله كان كينان يعتبر أن عليه أن يقدم الى كنيدى فى هذه اللحظة من حياته أى مساعدة يستطيع تقديمها له .

وقد وصف كينان يوغوسلافيا بعد أن تعرف عليها من خلال جولاته فى جمهورياتها واختلاطه بشعبها بقوله : «ليس هناك بلد أكثر تنوعا بالأجواء والمشاهد المتناقضة مثل يوغوسلافيا ، كما لا يضاهيها بلد آخر من حيث موقعها الجغرافى ، وهى أكثر أهمية للمشكلات التاريخية الكبرى لحوض الدانوب ولجنوب شرق أوربا بوجه عام » أما شعبها

فان كينان يروى ذكريات مؤثرة عما لاقاه خلال جولاته من لفتات بسيطة ومؤثرة من أفراد بسطاء كبارا وصغارا • وفى هذا يذكر أنهم حين كانوا يزورون جمهورية مونتنجرو وتعطلت سيارتهم وتوقفوا لاصلاحها برز ولد صغير من زاوية جبلية وهو يقدم حزمة من الورد لزوجته ويعود مسرعا الى حيث جاء • ويذكر الفتاة القروية الصغيرة التى حملها كينان الى الوجهة التى يقصدها خلال جولته فى جمهورية كرواتيا ، وحين وصلت بحثت فى حقيبة يدها وأخرجت برتقالة صغيرة قدمتها له وأصرت على ان يقبلها لأنه لا يليق أن تقبل منه أن يوصلها دون أن تقدم له شيئا مقابل هذا • ويذكر بعض الراهبات فى احدى الكنائس البيزنطية البعيدة اللاتى أصررن على عدم رحيلهن قبل أن يقدموا لكينان وزوجته وجبة من انتاج حديقتهم الصغيرة • أو الزوجة الشابة لأحد القسس حين كانوا فى رحلة وسط صربيا وكانوا قرب فناء احدى الكنائس حين ظهرت فجأة بطبق فيه فطائر الجبنة الساخنة وقدمته لكينان وزوجته بكل وقار وبررت ذلك بقولها : «لأنكم غرباء قرب منزلنا» • والرجل المتقدم فى السن ذو الأسنان الصلبة والذى حين كان كينان وزوجته يزوران كنيسة قديمة فى مدينة صغيرة فى صربيا تقدم بشكل مهيب أليهم ومد يده وقدم نفسه على أنه عمدة المدينة منذ ١٨ عاما وقال انه لاحظ أنهم غرباء وأن لديه منزلا فى المدينة وسأل ان كانوا يحبون أن يزوروه ويتناولوا معه مشروب التوت ، وهو ما فعله كينان وزوجته• أو الشاب الذى كان واقفا مع فريق من الفلاحين وحين ألقى عليهم كينان التحية باللغة الصربية وسأله ان كان يعترض على أن يلقى نظرة على حقول العنب أجاب وبعيون لا تخلو من الرقة : « اذا ما ألقيت عليهم التحية بالطريقة التى ألقيتها علينا فان أحدا لن يعترض » •

أما على المستوى الرسمى فقد وجد كينان اليوغوسلاف قوما يمكن التعامل معهم ، أكفاء ومرحين ومستعدين دائما

لا للاستماع فقط وانما للاستجابة أيضا • وكان من الممكن الالتقاء بهم رسميا وخارج مكاتبهم دون قيود ، وقد قابل كينان كثيرا منهم على هذا المستوى مما جعلهم يمثلون رفقة طيبة بمرحهم واسترخائهم واستعدادهم للمساعدة ، كما كان معظمهم أذكياء مبتهجين ذوى جاذبية سهلة وغير متكلفة ، وكانوا على عكس زملائهم الروس يعطون انطباعا قويا بالتصالح والانفتاح • غير أن هذا لا ينفى وجود استثناءات لهذه النماذج أو اتجاهات صارمة من شخصيات حاربت ضد الالمان تحت قيادة تيتو وربى فيهم هذا روحا صارمة من النظام والولاء تنطبع على سلوكهم وعلاقتهم خاصة بالأجانب، وكان من الواضح حين يعرفهم المرء بشكل أفضل أن عباراتهم وأفعالهم تحكمها رابطة غير مرئية ولكنها فعالة ، من النظام والتنسيق •

وبالنسبة لكينان لم يكن سلوكهم هذا يصدر عن عداء وانما عن قلق يصدر فى جانب منه عن تاريخهم الشيوعى ، ولكن فى جزء منه أيضا عن الاعتقاد بان احدا لم يولد ولم ينشأ فى يوغوسلافيا لن يكون قادرا على فهم التعقيدات الكامنة فى هذا التجمع الغريب للقوميات • حقيقة أنه فى الدبلوماسية ـ شأن كل مناحى الحياة ـ فان أحدا لن يرعى مصالحك ان لم تفعل أنت ذلك بنفسك ، وقد تبين لكينان أنه فى يوغوسلافيا ، على عكس غيرها من الدول الشيوعية الأخرى فى الكتلة الشرقية ، فانه من السهل أن يتعرف المرء على معظم الشخصيات القيادية وأن يكون معهم علاقات ودية بل وحتى علاقات غير رسمية ، وان كان هناك دائما بعض الاستثناءات يذكر منها زعماء جمهوريات البوسنة ومقدونيا حيث لم يكونوا دائما أصدقاء ومستعدين للمساعدة ، غير أن هذه الاستثناءات كانت تميل الى اثبات القاعدة • فقد كان كينان وزوجته ضيوفا شخصيين على الرئيس تيتو وزوجته فى العديد من المناسبات ، كما

استضافهم رئيس الجمعية الوطنية الكرواتية فى يوم بهيج على يخته الخاص فى الادرياتيك ، وفى بلجراد استقبلهم رسميون كبار فى منازلهم فى عدد من المناسبات ·

وبطبيعة الحال كانت الشخصية المسيطرة بين هذه الشخصيات الكبيرة هى شخصية تيتو الذى قابله كينان مرارا وسجل اعجابه وتقديره له ولانجازاته حتى قبل تعيينه فى بلجراد ، وخلال وجوده فى منصب السفير راقب كينان تطور علاقات بلجراد بموسكو ، وانتقالها من تجاهل خروشوف لتيتو ودعوة دول شرق أوربا وحكامها لتجاهله ، الى انتصاره وتلقيه دعوة رسمية من موسكو ومخاطبته مجلس السوفيت الأعلى وما لاقاه من ترحيب وتصفيق خلال رحلته المنتصرة الى موسكو فى ديسمبر عام ١٩٦٢ ·

غير أنه اذا كان كينان يسجل أن مهمته كسفير فى موسكو قد أحبطت لاعتبارات تتعلق بالاتحاد السوفيتى وطبيعة نظام الحكم فيه عندئذ وعدم رضاه عن كينان ، فانه يرجع احباط مهمته فى يوغوسلافيا الى اعتبارات تتعلق بالسياسة الداخلية الأمريكية ونفوذها السياسى فى اعاقة خطوات السياسة الخارجية وتوجيهها ليس بالشكل الذى يتفق مع المصالح القومية الأمريكية ولكن مع المصالح الضيقة لمجموعات عرقية لها تحيزاتها الخاصة ·

ويفسر كينان ذلك بقوله انه كان من الحقائق البسيطة فيما يتعلق بيوغوسلافيا وعلاقاتها بالاتحادالسوفيتى وأقطار المعسكر الاشتراكى ، أنها قد انفصلت عنه بشكل تام عام ١٩٤٨ ، وانفصلت عن مؤسساته العسكرية والاقتصادية ، فهى ليست عضوا فى حلف وارسو ولا تشترك فى نشاطاته العسكرية أو السياسية كما أنها ليست عضوا فى المنظمة

الاقتصادية لأقطار أوربا الشرقية المعروفة بالكوميكون ، بل ان يوغوسلافيا ذهبت فى اتجاهاتها الاستقلالية الى ان حرمت الاتحاد السوفيتى من التسهيلات والقواعد التى كانت ممنوحة له على بحر الادرياتيك • اما فى اوضاعها الداخلية فبينما ظلت رسميا دولة إشتراكية الا انها فى تطبيقاتها وممارستها الداخلية تختلف فى عدة وجوه هامة عن الاتحاد السوفيتى وحلفائه • ولم تكن هذه السياسة الاستقلالية التى اتبعتها يوغوسلافيا بدافع الحصول على مساعدات اقتصادية أو غيرها من الولايات المتحدة ، فحين ذهب كينان الى بلجراد كانت الولايات المتحدة تقدم معونات ضيقة ليوغوسلافيا ، وقد أوقفت يوغوسلافيا نفسها المساعدات الغذائية والمواد الأولية التى كانت تتلقاها من الولايات المتحدة فى الخمسينات وأنهتها عام ١٩٥٧ ، أى قبل أربع سنوات من مجىء كينان الى بلجراد ومنذ هذا التاريخ واليوغوسلاف يدفعون نقدا مشترواتهم العسكرية من الولايات المتحدة ، وهكذا مع وجود كينان فى بلجراد لم يكن اليوغوسلاف يتلقون تقريبا اى معونة حكومية على الاطلاق فيما عدا شراء بعض القمح وفقا لبرنامج فائض الحاصلات الزراعية وبشروط مخففة • واعتبر كينان أن مثل هذا الوضع كان مفروضا أن يلقى التشجيع والاستجابة من السياسة الامريكية وأن تلقى الاجهزة التى تعمل فى العلاقات الأمريكية اليوغوسلافية التشجيع القوى لدفع هذه العلاقات ، غير أن الكونجرس الأمريكى كان له موقف آخر تماما ، فقد كان عدد كبير من أعضائه يعتبرون أن يوغوسلافيا ليست الا كأى دولة أخرى من المعسكر الاشتراكى وكانوا يرون فى هذا تناقضا مع اصرار الخارجية الأمريكية على تقديم المعونات بما فيها المعونات العسكرية وبكميات كبيرة الى الشيوعيين اليوغوسلاف •

وقد أرجع كينان هذا التصور الخاطىء لوضع يوغوسلافيا من جانب أعضاء الكونجرس الى الجهل البرىء وان كان لا يمكن عذره ، وكان من جانب آخر نتيجة عدم

الاستعداد لاعتبارات سياسية للاعتراف بحقائق الأمور ، وهو ما يمكن ارجاعه بالنسبة لهؤلاء الى ضغوط مجموعات الأمريكيين من أصل كرواتي وصربي ، المعادين للنظام في يوغوسلافيا وضغوطهم على اعضاء الكونجرس في ولاياتهم • وقد أدت هذه الاتجاهات من جانب الكونجرس الى خلق عقبات أمام سياسة أمريكية سليمة تجاه يوغوسلافيا وبالتالى الى اضعاف قدرة ممثليها في هذا البلد على أداء واجباتهم ومهماتهم أو أن يبدوا بمظهر من له تأثير صوت داخل بلادهم حول هذه العلاقات •

ويذكر كينان أنه حين بدأ مهمته وقبل ان يسافر الى بلجراد تحدث مع المسئولين في الخارجية الامريكية بل ومع الرئيس حول معنى استمرار يوغوسلافيا ضمن ما يسمى « بالأمم الأسيرة » The Captive Nations والذى اتخذ به قرار الكونجرس عام ١٩٥٩ ويقام بمقتضاه أسبوع كل عام باسم هذه الدول • وقد رأى كينان أن نص هذا القانون رغم عدم انطباق ظروف يوغوسلافيا عليه يجعل من كل أجهزة الحكومة ، ووزارة الخارجية والرئيس الأمريكي ومنه كممثل للرئيس ، ملزمين أخلاقيا بالاطاحة بنظام الحكم في يوغوسلافيا •

ورغم أنه أخذ وعدا قبل سفره بأن الرئيس الأمريكي سوف يلغى هذا القرار بالنسبة ليوغوسلافيا الا أنه بعد وصوله الى بلجراد تلقى ما يفيد بشكل خفى أن الرئيس قد غير رأيه وأن هذا الأسبوع سوف يقام هذا العام متضمنا يوغوسلافيا • وهنا يتساءل كينان عمن لوى ذراع الرئيس ؟ كان من الواضح أن السياسة الداخلية قد انتصرت بشكل مطلق على السياسة الخارجية • وقد كان من المفروض أن يتفهم كينان هذا الدرس وأن يعدل من آماله وتوقعاته حول نجاح مهمته ، غير أن هذا لم يكن الا مقدمة المشاكل ، فبعد هذا بعام وفي يونيو عام ١٩٦٢ وعندما كان برنامج

المساعدات الأجنبية وقانون توسيع التجـارة يناقشان أمام الكونجرس تقدم أحد أعضاء الشيوخ بتعـديل يقضى بمنع تقديم أى مساعدات الى يوغوسلافيا • وبعد تقديم هـــذا التعديل بأسبوع تقدم أحد أعضاء مجلس النــواب بتعديل يقضى بالغاء منح يوغوســلافيا وضـــع الدول الأكثر رعاية The Most Favoured Notion رهو الحق الذى كانت يوغوسلافيا تتمتع به منـــذ ثمـــانين عاما بمقتضى اتفاقيـــة بينها وبين الولايات المتحدة وكان هذا الحق لا يتصل بالمســاعدات او المعونات وانما يتصل أساسا بتنظيم التجارة بين البلدين ، وبالنسبة ليوغوسلافيا كانت تعتمـــد عـــلى هـــذه التجـــارة للحصول على دولارات للوفاء بالدين الذى عليها لواشنطون، وهكذا فان عدم حصولها على هذا الوضع كان يعنى تقييـــد صادراتها إلى الولايات المتحدة وبالاضـــافة الى هـــذا التأثير المباشر فقد رأى كينان فى هذا تجريدا لأجهزة ادارة العلاقات مع يوغوسلافيا مثل وزارة الخارجية والسفير الأمريكى فى بلجـــراد من أى نفـــوذ يمـــكنه من مجرد التصرف أو حتى مناقشة العلاقات مع مثل هذه الحكومة • فهـــذان الجهازان مفروض أن يكونا حلقة اتصال بين الحـــكومة اليوغوسلافية وبين أجهـــزة الولايات المتحـــدة حول مشـــكلات العـــلاقات المتبادلة ، فاذا ما ثبت أن هذه الأجهزة ليس لها أى تأثير على صياغة سياسة بلادهم حول هذه الأمور فلماذا تهتم الحكومة اليوغوسلافية بمناقشتهم ، وضاعف من هـــذا أن اتجـــاهات الكونجرس تلك جاءت صدمة للخارجيـــة وللســـفير حيث لم يخطروا بها مسبقا ، ولم يبذل أى مجهـــود لمناقشـــتها معهم والتعرف على وجهات نظرهم فيها وهم الذين يفترض فيهـــم أنهم أكثر خبرة ووعيا والماما بحقائق هذه العلاقات •

★★★

وادراكا لأثر هذه التعديلات على علاقات البلدين وعـــلى وضعه ومركزه كسفير فقد بذل كينان جهدا واســـعا داخل

الولايات المتحدة لمنع اقرار هذه التعديلات ، ففى خلال زيارته لواشنطون التقى بمختلف المستويات فى وزارة الخارجية ، وكذلك بالرئيس الأمريكى ومساعديه الذى أبدى تفهما للموقف ، ووجهه لبذل جهد مع أعضاء الكونجرس وسهل له اتصالاته بهم بل وشجعه على ان ينقل قضيته الى الرأى العام ، وهو ما فعله كينان بالكتابة فى الصحف والرد على ملاحظات النواب وأعضاء الشيوخ ، كما أمضى كينان أسبوعا كاملا فى الاجتماع بأعضاء مجلس الشيوخ وكانت هذه التجربة بالنسبة له لا تدانيها تجربة أخرى فى ادراكه الفجوة الضخمة فى الفهم والنظرة التى تفصله عن من يتحدث معهم . وبعد عودته الى بلجراد واصل هذه الجهود من خلال اتصالاته الشخصية مع الأجهزة المختصة بالكونجرس والخارجية الذين أوصوه بأن يتحدث مع الرئيس الأمريكى شخصيا وهو ما فعله ، غير أن الرئيس أحاله الى الأعضاء الذين قدموا هذا التعديل والذين كانت استجابتهم سلبية بل وتدعو الى اليأس . وباءت كل هذه الجهود بالفشل، ففى ٤ أكتوبر ١٩٦٢ صدق اجتماع مشترك لمجلس النواب والشيوخ على هذه التعديلات .

بعد صدور هذا القانون راح كينان فى جولات منفردة على قدميه ولأميال طويلة فى ضواحى بلجراد يتأمل معانى ما حدث بالنسبة له ولوضعه كسفير فى يوغوسلافيا ، وقد وجد أنه بلغ الثامنة والخمسين من عمره ، وأعطى معظم حياته النشطة للخدمة الدبلوماسية ، كما كان يحاول أن يقنع أعضاء الشيوخ الذين تبنوا المشروع أن له خبرة خمسة وثلاثين عاما فى شئون شرق أوربا ، بينما كان العضو الذى تبنى هذا التشريع لم يبرح الولايات المتحدة ، ومع هذا — وفى مسألة حيوية للسياسة الخارجية وتتعلق ليس فقط بيوغوسلافيا وانما بالأقطار التى تحيطها وتراقب تجربتها — فان عضو الكونجرس هذا قد فرض حكمه فوق آرائه

وخبرته . وقد استخلص كينان من كل هذا أنه من المستحيل بالنسبة له أن يستمر فى منصبه فى مثل هـذه الظـروف ، فالسفير يمكن أن يكون مفيدا فقط حين ينظر اليه على ان له بعض النفوذ فى بلده وداخل حكومته . ومن ثم قرر كينان أن يترك منصبه على ألا يكون تصرفه بشـكل سريع ، فقـد انتظر ثلاثة شهور قبل أن يطلع وزارة الخارجية الأمريكية على رغبته فى استئناف حياته الجامعية فى برنستون مـع بداية العام الاكاديمى التالى ، ولكن قراره هذا كان قد اتخذ فى طرقات وضواحى بلجراد فى هذا الصباح غير السعيد .

على أنه فى الشهور القليلة التى تلت ابداء رغبته فى الاعتزال وسبقت رحيله عن بلجراد فان علاقات كينان مع الرسميين اليوغوسلاف ظلت ودية ، فقد استمروا ينظرون اليه باحترام شخصى وتعاطف ، ويعاملونه كصديق فعـل ما يستطيعه ـ وان كان بغير نجاح ـ لكى يضمن لهم معاملة عادلة من جانب حكومته .

ولم يعد هو يتوقع منهم أن يتصوروا أن له نفوذا عند حكومته ، وعلى هذا لم يعـد فى أحاديثه معهم يسـمع منهم أى شكوى من استمرار المضايقات التى يتعرض له مواطنوهم أو رسميوهم مثلا فى الولايات المتحدة . وقد استمر التعامل على هذا المستوى الشخصى حتى مع تيتو ، فخلال الشـهور الثـلاثة التى سبقت رحيله قابله كينـان حوالى ثلاث مرات وخلالها كان كينان يتكلم ويتصرف بشكل شخصى وباعتبار أنه لا يمثل أحدا ، وعلى هذا الأساس راح فى احدى المقابلات يقدم تصوراته لتيتو حول الأسس التى يمـكن أن تتطـور عليها علاقات جديدة بين البلدين حين تسـمح الظـروف ، وحول التوقعات العملية التى يجب أن يتصرف عـلى أساسها كل جانب وينتظرها من الآخر .

وباعتبار أن الرئيس الأمريكى كنيدى هـو الذى دعاه لكى يشغل منصب السـفير فى بلجراد فان كينـان بعـد أن

أحبطت تجربته فيها راح يقيم مشاعره تجاه كنيدى وذوره فيما حدث فيقول انه لا يحمل له مشاعر سيئة لفشله فى أن يسانده خلال المرحلة الصعبة فى العلاقات الأمريكية اليوغوسلافية ، وهو فى هذا يقدر الضغوط الداخلية التى تعرض لها ونصائح المحيطين به وخاصة مستشاريه فى الشئون الداخلية ، وبخلاف هذا فقد عامله دائما بشكل ودى ومجامل • ويتذكر كينان أنه بعد تجربته فى يوغوسلافيا بثلاث سنوات سأله لويس فيشر عن تقييمه الشخصى لكنيدى وعما اذا كان وجده باردا رغم تالقه ودقة فكره وشخصيته وهيئته الجميلة وانجازاته كرئيس شخصى، وآجاب كينان على هذا بقوله : « انه ليس باردا تماما فلم آشعر بهذا وانما شعرت انه يمتلك بعض الوفاء الحقيقى ولكنه كان بمعنى ما خجولا ، كما آنه وبفعل خلفيته الأسرية قد طور نوعا من الانفصال وبالشكل الذى ينفصل به أعضاء الأسرة الكبيرة ذات الأساس المتين ، وبعبارات أخرى فان الشخص الذى لديه هذا الارتباط العائلى المسيطر، يجد فيه ما يغنيه عن أن ينشد صداقات حقيقية خارجها ، وباعتباره شخصية سياسية فقد كان لديه وبشكل متطور جدا ما يسميه فرويد Personna Eyo أى الشخصية الخارجية المتميزة عن الذات ، ولكنه عاملنى دائما والآخرين الذين أراهم فى وجوده بطريقة ودود خالية من البرود ، كما لا يشعر المرء فى وجوده بأى شعور خاص بالاحتقار أو « القسوة » •

هذا الشعور من جانب كينان هو الذى يفسر الخطاب الذى بعث به الى كنيدى بعد اعتزاله من منصبه كسفير وقال فيه : « انى ولأنى اعتزلت تماما ولست مرشحا لأى منصب سواء بالانتخاب أو التعيين ، وجدت أن أعبر باخلاص عن تقديرى الكامل كمؤرخ وكصاحب خبرة دبلوماسية للطريقة التى عالجت بها مشكلات السياسة الخارجية ، ولا أظن أننا قد شهدنا مستوى أفضل من ذلك من رجل دولة

فى البيت الابيض فى القرن الحالى ، وآمل أن تظل متسلحا بالقلب الطيب ولا تسمح لنفسك بأن تثبط من همتك الضغوط المروعة لمنصبك أو أن تعيقك بلادة فروع الحكومة الأخرى ، وأرجو أن تعلم أنى وآخرين كثيرين نشعر بامتنان عميق للشجاعة والصبر ونفاذ البصيرة التى تواصل بها مسئولياتك » وقد رد عليه كنيدي بعد ذلك بأسبوع فى ٢٨ أكتوبر ١٩٦٣ : «وان خطابك فى ٢٢ أكتوبر سوف أحتفظ به دائما الى جانبى كشىء أرجع اليه وأستمد منه القوة فى الأيام الصعبة ، وانه لمن الأمور المشجعة جدا أن يحوز المرء على تأييد مؤرخ دبلوماسى له صفاتك وقد كان من مراعاة الشعور غير المألوفة أن تكتب لى بهذه الطريقة الشخصية » .

ويختتم كينان مذكراته هذه بقوله ان هذا الخطاب الشخصى من كنيدى ومن شخص لم يكن أمامه غير أسابيع قليلة يعيشها كان مصدر عزاء كبير عن الاحباط الذى أصاب مهمته فى يوغوسلافيا وأنهت بشكل نهائى عمله الحكومى والدبلوماسى .

الفصل الثالث
سحب الخطر

بعد انتهاء عمله كسفير في يوغوسلافيا عام ١٩٦٣ واعتزاله العمل الحكومي والدبلوماسي نهائيا واصل كينان عمله ونشاطه الفكري والأكاديمي وراح يسجل ويطور خبراته وتجاربه وآراءه والأحداث التي عاشها منذ أن التحق بالسلك الدبلوماسي عام ١٩٢٧ ، ورغم أن معظم هذه الخبرات والتجارب قد ضمنها كينان في مذكراته التي غطت كما رأينا حتى عام ١٩٦٣ والتي انتهى منها عام ١٩٧٢ وكذلك في أعماله التي سبقت هذا التاريخ وظهرت خلال الخمسينات والستينات حول قضايا التاريخ الروسي والسياسة الروسية وقضايا السياسة والدبلوماسية الأمريكية والأوربية ، الا أن ما سجله كينان وعبر عنه بعد كتابة مذكراته كان يمثل مرحلة نضجه الفكري والفلسفي وبلورته وتطويره ومراجعته للقضايا التي انشغل بها وأخذ يقرأ ويحلل الأحداث والتطورات الأمريكية والسوفيتية والدولية في ضوئها ، شهدت مرحلة ما بعد المذكرات عددا من الكتب ومئات المقالات والتعليقات والمقابلات والمحاضرات والشهادات أمام الكونجرس ، وكان من أبرز هذا النشاط كتابه الخطر الذي صدر عام ١٩٧٧ تحت عنوان دال هو : The Clouds of dangers وكتابه Nuclear Dellusions الذي يعالج فيه العلاقات الأمريكية السوفيتية في ضوء حقائق وأخطار العصر الذري • أما القضايا التي شغلته وبشكل أكثر تحديدا وتركيزا في هذه المرحلة فيمكن تقسيمها الى ثلاثة أقسام رئيسية يتضمن الأول انشغاله بأسس السياسة الخارجية

الامريكية ، ونقده العديد من المفاهيم والافتراضات التى تحكمها وتحدد رؤيتها للعالم ومكانتها فيه، كما زاد انشغاله فى هذه المرحلة بالمؤثرات الداخلية على السياسة الخارجية الامريكية وخاصة دور الكونجرس وجماعات الضغط الداخلية ، ويشمل القسم الثاني من هذه القضايا متابعة اهتمامه القديم بقضايا السياسة السوفيتية والاعتبارات التاريخية والحضارية والأيديولوجية التى تحكمها وتوجهات قادتها والاعتبارات التى تحكمهم ، غير أن تناوله لهذه الجوانب فى الوضع السوفيتى كان أساسا من زاوية تأثيره على العلاقات السوفيتية الأمريكية وتصحيحه لعدد من المفاهيم والافتراضات الأمريكية حول الأوضاع والنوايا والقدرات السوفيتية ٠

ويتصل بهذا الاهتمام الأساسى بمشكلات العلاقة الأمريكية السوفيتية بل ويقع فى قلبه ، تركيزه على قضايا التسلح وخاصة فى أبعاده الاستراتيجية والنووية حيث واصل خطه الرئيسى الذى تبناه منذ الخمسينات ومنذ ظهور القدرة الذرية الأمريكية من التحذير من بناء السياسة الدفاعية الأمريكية على أساس من القدرات النووية وتصعيدها ومن الوهم القائل انه كلما زادت القدرة النووية لأمة زاد أمنها٠

أما القسم الثالث من القضايا التى سيتركز عليها اهتمام كينان فقد كانت تتعلق بما تصوره من مشاغل أمريكا الداخلية مثل قضايا البيئة والتعليم والطبقات الفقيرة والتى رآها تمثل تحديا للمستقبل الأمريكى بأكثر مما ستمثل التهديدات أو الأخطار الخارجية ٠ وفى هذا الاطار أيضا شغلته قضية الشباب الأمريكى ومؤثراته وعلاقته بمجتمعه ونظرته الى الأجيال السابقة ٠

وعلى هذا سوف يتضمن هذا الفصل عرضا للأفكار التى صدرت عن كورج كينان حول هذه القضايا بعد أن كتب مذكراته والتى تمثل استكمالا لبنائه الفكرى ولشخصيته كما أراد أن يصنعها كدبلوماسى ومؤرخ ٠

فعلى الرغم مما تضمنته مذكرات كينان عن فترات حياته العملية الدبلوماسية من حديث عن التداخل الضار بين اعتبارات وضغوط السياسة الداخلية وبين اهداف وممارسات السياسة الأمريكية الخارجية ، الا انه يبدو ان تجربة كينان فى يوغوسلافيا ، والتى كان السبب الرئيسى فى احباطها تدخل الكونجرس لاعتبارات وبدوافع رآها كينان مدفوعة بعوامل هى أبعد ما تكون عما تمليه متطلبات ادارة سياسة خارجية ناجحة وفعالة مع بلد مثل يوغوسلافيا ـ قد جعلته يواصل تركيزه على قضية العلاقة بين السياسة الداخلية الأمريكية وبين ممارسات الدبلوماسية الأمريكية ، بل ودفعته الى أن يستخلص أن وظيفة الدبلوماسى الأمريكى المحترف تتميز بدرجة مما أسماه « التناقض المأساوى » • ويفصل كينان ذلك بأن الموظف الدبلوماسى يربى على الاعتقاد بأنه يخدم المصالح القومية للبلد ككل فى علاقاتها الخارجية ، ورغم هذا فانه يجد نفسه يعمل لأناس ليس هذا هو اهتمامهم الأساسى ، فاهتمامهم الرئيسى هو الشئون الداخلية والمصالح التى يدافعون عنها والتى تتناقض دائما مع متطلبات دبلوماسية وطنية وعاقلة ، والنتيجة هى أن الدبلوماسية الأمريكية نادرا ما تدار فقط فى اتجاه أهدافها الواضحة ، وفى الأحوال التى تدار بها حقا فى اتجاه الأهداف الحقيقية للسياسة الخارجية فان هذا يحدث حين لا تكون المسائل الداخلية مرتبطة بها بشكل واضح ، كذلك فانه فى ظروف الحرب والأخطار الحقيقية فانها تدار فى حدود معقولة • أما فيما عدا هذا فان سياسة واشنطون الرسمية تميل الى أى شىء يحدث فى أى مكان فى العالم ، والنتيجة أن أهداف الدبلوماسية الأمريكية وبالشكل الذى يربى ويدرب الدبلوماسى المحترف على رؤيتها ، تميل لأن تكون مختلفة عن تلك التى تنعكس فى التعليمات التى يتلقاها من حكومته ، وطالما أنه عاجز عن تحقيق ما يعتبر أنه أهداف لا تحظى بتأييد حكومته ، فان هذه الأهداف تصبح غير ممكنة التحقيق •

هذا الوضع يدفع كينان الى أن يتأمل بشكل أعمق فى وظيفة الدبلوماسى المحترف وما تواجهه من عقبات تحد منها ، فيقول أن هذه الوظيفة كانت دائما تبدو له وظيفة تتسم بالنقاء وكأمر من أمور الواجب التى يجب أن يكرس لها المرء كل طاقاته ، كما يجب أن يتميز من يمارسها بالتعقل والتكامل • ويستطرد كينان من هذا المفهوم الى القول انه حتى فى ذروة خلافه مع عناصر السياسة الأمريكية فانه لم يشك فى ضرورة أن تكون الدبلوماسية الأمريكية قوة خير فى شئون العالم وأن يكون اتجاهها ايجابيا وليس سلبيا وبحيث تخدم قضية علاقات أمريكا بالعالم • وكان هذا بالنسبة له مسئولية على أكبر درجة من درجات الأهمية والجدية • على أنه حين تبدأ المصالح الحزبية تتدخل وتعبر عن نفسها فى الحياة السياسية الداخلية وحين تتسلل الى العملية الدبلوماسية وتؤثر فيها فان هذا ما اعتبره كينان عنصر افساد ولا يمكن التسامح معه ، « وأشعر بشعور الجراح حين يطلب منه أن يعمل مبضعه فى غير المكان المصاب وأن عليه أن يفعل هذا حتى يبدو بشكل يروق لأناس يجلسون فى مقاعد المتفرجين » •

ولذلك يقول كينان ان اشتراك الكونجرس فى عملية صنع القرار لا يقلل فقط من خصوصية القرار وانما يلحق بهذه العملية درجة عالية من عدم المرونة والجمود ، الأمر الذى يجرد صانع السياسة من امكانية المبادرة وميزة المفاجأة والقدرة على الاستجابة الحساسة لما هو غير متوقع • يضاعف من هذا فى رأيه أن الكونجرس وبشكل حتمى لا نقاش فيه، هو أكثر عرضة من الجهاز التنفيذى ومن وزارة الخارجية للتأثير فيه من قبل قوى الضغط والأقليات الحريصة على التأثير فى السياسة الخارجية لصالح اهتماماتها المحدودة ، وحين يحدث هذا « فانه يعنى ببساطة أن سلطة الحكومة الأمريكية على التصرف فى البيئة الدولية يساء استخدامها وتشوه لأغراض سياسية داخلية ، ويصبح من نتيجتها أن أفعالنا

في المسرح الخارجي ، وفيما يتعلق بالسياسة القومية وأهدافها تتصف بعدم التماسك أو عدم الفاعلية أو حتى التناقض مع هذه الأهداف » ٠

ويستطرد كينان في بيان هذا التأثير الضار على ممارسة السياسة الخارجية فيقول ان هذا الوضع لا يضيق فقط من النطاق الممكن للممارسة السياسية الخارجية ، وانما يقدم دافعا للزعماء الأجانب وممثليهم للحصول على تنازلات من الولايات المتحدة لا من خلال القنوات الدستورية للرئيس أو وزارة الخارجية وانما من خلال اللجوء الى الباب الخلفى المتمثل في قوى ضغط أمريكية خاصة وشخصيات فى الكونجرس تتفق أهدافهم معهم ٠

ويحرص كينان على أن يوضح أن ملاحظاته تلك على دور الكونجرس السلبى فى السياسة الخارجية الأمريكية انما يقدمها لا بهدف معارضة الدور المتزايد للكونجرس او الطابع الديمقراطى للحكم ، أو لعدم ادراك أن هذا هو ثمن الديمقراطية ، وانما يقدمها من وجهة نظر معرفة حدود السياسة الخارجية الأمريكية والقيود التى تتعرض لها ٠

ويربط كينان بين هذه القيود التى يفرضها الكونجرس وبين قيود أخرى بعضها دستورى وبعضها يتعلق بأنماط من التفكير التقليدى ، فبعضها ناتج عن عمل النظام السياسى والبعض الآخر عن انعكاسات لمواقف تجد أمريكا نفسها فيها ٠ وينبه كينان الى أنه ازاء هذه الحدود والقيود التى لاسباب عديدة يصعب أو من المستحيل ازالتها فان على السياسة الأمريكية أن تأخذ فى اعتبارها عواقب هذا العجز النسبى وأن تقبل حقيقة أن هناك حدودا صارمة على ما يمكن للسياسة الأمريكية تحقيقه فى التأثير على مجرى الأحداث الدولية ٠ وبعبارة أخرى عليها أن تتناول مشكلات السياسة الخارجية بتواضع نسبى وبادراك أن مواردها وامكاناتها

على التأثير في مجرى الأحداث الدولية ليست بلا حدود ، والمعنى المباشر لذلك هو تطبيق خفض التزاماتها الخارجية الى الحد الذى لا غنى عنه ٠

ويتأمل كينان فى أبعاد ومصادر ظاهرة تأثير السياسة الداخلية والمؤسسة التشريعية على السياسة الخارجية الأمريكية ويعتبر أنها ليست جديدة ، ويذكر فى هذا بقول توكوفيل منذ ١٥٠ عاما : « ان من طبيعة الديمقراطية أن تنشأ أكثر الأفكار تشويشا وخطأ حول السياسة الخارجية ، وأن تتقرر مسائل السياسة الخارجية وفقا لاعتبارات داخلية بحتة » ويضيف كينان أن هذا أمر طبيعى ، ففى كل مكان فى العالم فان كل سياسى أو رجل دولة عليه أن يعطى بعض الانتباه للرأى العام الداخلى فى ادارته للسياسة الداخلية ، الا أن هذا الاتجاه فى الولايات المتحدة يأخذ شكلا متطرفا أكثر من أى مكان فى العالم ، وهذا ما قد تفسره جزئيا طبيعة الرأى العام الذى يخاطبه رجل الدولة الأمريكى ، ومن هنا يستخلص كينان أن النظام السياسى الأمريكى فى جوانب كثيرة منه مصمم بشكل لا يسمح لادارة سياسة خارجية لقوة عظمى أن تتطلع لقيادة العالم ٠ كل هذا يجعل كينان يجدد دعوته للسياسة الخارجية الأمريكية الى أن تتفهم الدرس من هذا وهو ما يعتبره كينان حدود قدراتها وامكاناتها تجاه مشكلات العالم الدولية ، فيقول ان ثمة مشكلات فى العالم لن تكون الولايات المتحدة قادرة على حلها اذ أن لهذه المشكلات أعماقا لن يكون من المفيد أو الفعال للسياسة الأمريكية أن تغمس نفسها فيها ، فثمة معضلات فى مناطق أخرى فى العالم يجب أن تجد حلولها بدون الاشتراك الأمريكى ٠ ولا ينظر كينان الى هذا على أنه دعوة منه لاتباع سياسة العزلة التى سبق أن طالب بها ساسة أمريكيون فى المراحل الأولى لقيام الولايات المتحدة ، وانما يصور ما يطالب به على أنه دعوة للتواضع فى النظرة القومية والى ادراك أكثر واقعية لحدود الكيان السياسى الأمريكى ، والى

ضبط أكثر للنفس مما أظهرته الولايات المتحدة فى الحقب الأخيرة بالزج بنفسها فى مواقف معقدة بعيدة عن شواغلها .

وأكثر من هذا فان كينان يعتبر تناوله دعوة الى أن يدرك الأمريكيون أنه فى التداخل بين الشعوب ـ مثله مثل التفاعل بين الافراد ـ فان قوة المثل والقدوة أقوى بكثير من الحث و النصائح الاعلامية ، ويذهب فى هذا الى أن النموذج الذى تقدمه الولايات المتحدة للعالم لا يخدم هذا الهدف .

ان ما يأخذه كينان على تدخل الاعتبارات الداخلية والحزبية فى عمل السياسة الخارجية الأمريكية ودبلوماسيتها قد تأكد بتجربة كينان فى يوغوسلافيا ، وهى التجربة التى اختبر فيها ليس فقط تغليب الكونجرس وأعضائه لاعتباراتهم الحزبية ومصالحهم الانتخابية على المصالح العامة وأهداف السياسة الخارجية الأمريكية فحسب ، وانما اختبر أيضا وواجه ضعف المكونات العلمية والثقافية لهؤلاء الأعضاء ، ولعل هذه الخبرة هى التى جعلته يقرر أن نقده لتدخل الكونجرس لا يعنى نقد النظام الديمقراطى أو اعتراضه على أن يصنع الشعب قراراته بنفسه ، وانما اعتراضه على من يرشحون أنفسهم للانتخاب وعلى قدراتهم المؤسفة ، وكذلك فان تفادى مثل هذا الوضع يتوقف على ضمان اختيار الأشخاص الذين سيرشحون أنفسهم من بين أفضل الرجال وليس « من السوقة أو الراكدين أو البلداء وغير المتعلمين » ، وهو لا يعنى بهذا نوعا من الأرستقراطية الموروثة وانما الأرستقراطية القائمة على الاستحقاق والجدارة Meritocracy ولكن كيف يمكن أن يتم هذا الاختيار ؟

يقول كينان انه يمكن تشكيل لجنة تضم ما بين ٥٠٠ ـ ١٠٠٠ شخص من خيرة الناس تعينها سلطة مستقلة منزهة مثل المحكمة الدستورية العليا وتقوم معايير اختيارها على التميز والامتياز فى الحياة الوطنية والذى يتحقق بالجهد

الشخصى وخارج نطاق التنافس السياسى . وهؤلاء هم الذين يمكن أن يتقدموا للانتخابات لكى يختار الشعب من بينهم اعضاء مجلس الشيوخ .

ومثلما شغل كينان نفسه خلال حياته العملية والدبلوماسية وبعدها بظاهرة تأثير الاعتبارات الحزبية والمصالح الخاصة على فرص نجاح وفعالية السياسة الخارجية الأمريكية كذلك شغلته وبشكل أكثر الحاحا قضية التسلح النووى وأخطاره واتخاذ الولايات المتحدة لهذا المستوى من التسلح أساسا لسياستها الدفاعية وتصورها لقضية الأمن الأمريكى وفعالية الأسلحة التى يعتمد عليها ومستوياتها التدميرية .

ولعل الكتاب الذى صدر لكينان عام ١٩٨٢ والذى حمل عنوانا دالا هو The Nuclear Delluions يصور رحلته وجهوده فى التنبيه الى أخطار التسلح النووى والدعوة الى سياسة عاقلة تنزع فتيل أخطار هذا التسليح . فقد ضمن كينان الكتاب المقالات التى كتبها فى الخمسينات منذ أن اتجهت الولايات المتحدة الى صنع القنبلة الهيدروجينية ، ودارت هذه المقالات حول رفضه للقول بأن الأسلحة النووية يجب أن تلعب دورا أساسيا فى الاستراتيجية الأمريكية ، وفيها نبه الاستراتيجيين الأمريكيين الى أنه كلما أسرعت الولايات المتحدة فى بناء أسلحة الدمار الشامل من أجل قيمتها الرادعة فقط ابتعدت عن المبدأ بضرورة البدء فى استخدام هذه الأسلحة ، وأمكن للسياسة الأمريكية أن تحرر نفسها فى مجال التسلح من الافتراض الزائف بأن الأمن يتحقق بقدر عدد البشر الذين يمكن قتلهم بسلاح واحد . كما حذر من أن بناء موقف دفاعى على أساس من سلاح انتحارى سيؤدى فى المدى الطويل الى شل السياسة القومية وتقويض تحالفاتها، ودفع كل جانب بشكل أعمق وأعمق الى سباق تسلح لا أمل فيه وفى هذا دعا

كينان حكومته الى أن يكون موقفها المعلن هو : « اننا نأسف لوجود هذه الأسلحة ونمقت استخدامها وليست لدينا النية فى البدء باستخدامها ضد أحد ولن نستخدمها الا بتردد شديد والا اذا ما فرض علينا ذلك » ، وقد ظل كينان هو وعدد من المتخصصين الأمريكيين فى الاستراتيجية العسكرية يدعون الى أن تتخلى السياسة الأمريكية عن هذا المبدأ ويعتبرون أنه سوف يسهل كثيرا مفاوضات الحد من التسلح ، الا أن الادارات الأمريكية رفضت ذلك واعتبرت أن التخلى عن هذا المبدأ سوف يجرد الولايات المتحدة والتحالف الغربى من عنصر رادع خاصة فى مواجهة التفوق العددى السوفيتى فى أوربا فى القوات التقليدية .

ويقول كينان انه بعد أن تبين عدم الاستجابة لدعوته الى تصفية الأسلحة النووية كعنصر رئيسى فى الوضع العسكرى للقوى العظمى ونزع فتيل المواجهة العسكرية الأمريكية السوفيتية فقد انتهى الى أنه لم يبق أمامه ما يفعله الا العزلة الأكاديمية والعودة الى الدراسة ، ومن هذا الموقع واصل كينان كتاباته ومحاضراته للتنبيه الى الخطر المتزايد للسباق النووى خاصة فى فترات تدهور العلاقات الأمريكية السوفيتية الى الحد الذى « حين يسمع المرء البيانات الصادرة عنهما فلابد أن نفترض أننا فى حالة حرب غير معلنة » وقد ظل السؤال الذى يوجهه كينان فى تحذيره من الخطر النووى هو : « هل علينا أن نعتمد على أسلحة الدمار الشامل كجزء متكامل وحيوى لقوتنا العسكرية ؟ » .

ويعبر كينان عن أسفه من أنه رغم كل التحذيرات من العقلاء عن الآثار المدمرة لأى حرب تستخدم فيها الأسلحة النووية ورغم تأييد القادة الأمريكيين وادراكهم أنه ليس هناك نصر فى حرب تستخدم فيها هذه الأسلحة فان هذه الأسلحة تتكدس يوما بعد يوم ، ولا يعنى هذا فى نظر كينان أنه يجب الاستسلام لهذا الواقع بل يجب العمل على كسر

هذه الحلقة المفرغة من تصـعيد بنـاء التسـلح النـووى ·
ويتساءل كينان: كيف؟ ويقرر أنه بداءة يعتقد أن مفاوضات
الحد من التسلح التى تجرى فى نطاق ما يعرف بمفاوضات
سـولت لم تعـد تمثـل مخـرجا من سـباق التسـلح ، بل
انه يعتبرها جزءا من المشكلة · أما المخرج فى رأيه فهـو
خطوة جريئة وقرار جرىء من جانب القوتين يعالج جوهر
المشكلة ، وأن ما يقترحه لا يصـدر عن فراغ وانما عـلى
أساس ما أعلنه رئيس أمريكى هو ريجان من أنه « سيتفاوض
بعد ما تدعو الضرورة لخفض أعداد الأسلحة النووية لدرجة
لا تمكن آيا من الجانبين من تهديد بقاء الآخر » · وعلى هذا
اقترح كينان أن يدعو الرئيس الأمريكى الحكومة السوفيتية
لاجراء خفض عاجل عـلى كل المسـتويات وبنسبة ٥٠٪ من
الترسانة النووية التى تحوزها القوتان ، وأن يمس هـذا
الخفض كل أشـكال الأسلحة سـواء أكانت استراتيجيـة أم
متوسطة المدى أو تقليـدية وكذا وسائل ايصـالها ، ودعا
كينان بالتوازى مع هذا الى انشاء لجنـة علميـة أمريكيـة
سوفيتية مشتركة تحت رئاسة شخصية علمية بارزة محايدة
لكى تدرس لا مجرد التخلص من هـذه الأسلحة بشـكل آمن
بل كيفية استخدامها بشكل يساهم ايجابيا فى حيـاة البشر
سواء فى القوتين أو بين شعوب العالم ·

ولا شك فى أن مما يمثل عزاء جزئيـا لجـورج كينـان
واحباطاته المستمرة أن اقتراحه هـذا بأن تتخلص القوتان
من ٥٠٪ من ترسانتهما النووية قد تحقق بعد هذا فى البيان
الذى صدر عن قمة جنيف بين الرئيسين ريجان وجورباتشوف
فى نوفمبر ١٩٨٥ حيث دعا الزعيمان بناء على المقترحات
التى تقدم بها كل جانب « الى تقدم سريع خاصة فى المجالات
التى تبدو فيها أرضا مشتركة بما فى ذلك مبدأ خفض ٥٠٪
من الأسلحة النووية لـكل من الولايات المتحـدة والاتحـاد
السوفيتى وتطبيق ذلك بشكل ملائم » ·

وكان تحذير كينان من الآثار المدمرة للأسلحة النووية وخطأ الاعتماد عليها في بناء القوة العسكرية ومساهمة ذلك في دفع سباق التسلح العالمي ـ قد اقترن بالتحذير لما لهذا أيضا من تأثير على صبغ التفكير الأمريكي بالصبغة العسكرية، وهو ما وجد أنه ميز عصر ما بعد الحرب الثانية ، ولم تقتصر آثاره العميقة على السياسة الخارجية الأمريكية بل أيضا على المجتمع الأمريكي • ويفصل كينان ذلك بقوله ان هذا قد أدى الى ما يعتبره آخرون معه تشويها خطيرا للاقتصاد القومي الأمريكي ، فقد أجبر الأمريكيون على أن يعودوا أنفسهم على انفاق جزء كبير من دخلهم القومي في انتاج وتصدير الأسلحة والاحتفاظ بمؤسسة عسكرية واسعة ، وهي أهداف لا تضيف شيئا للطاقة الانتاجية الحقيقية والاقتصاد الأمريكي وانما تجرده كل عام من عشرات البلايين من الدولارات التي يمكن أن توجه الى الاستثمار الانتاجي •

ويذهب كينان الى أن هذه العادة قد ارتفعت الى مستوى ما يسميه (الادمان القومي) ، فالمجتمع الأمريكي لا يستطيع أن يخلص نفسه من هذه العادات بدون أن يكون لهذا من أعراض خطيرة ، فملايين الناس في الحياة المدنية بالاضافة الى ملايين آخرين في الزي العسكري قد تعودوا على أن يحصلوا على معاشهم من المؤسسة العسكرية الاقتصادية كما أن آلاف المشروعات أصبحت تعتمد عليها وهو ما أصبح المصدر الرئيسي للعجز في الميزانية وما يسببه من عدم استقرار • ويوضح كينان الأمر قائلا بأنه قد نشأت رابطة غير صحيحة بين هؤلاء الذين ينتجون ويبيعون الأسلحة وبين هؤلاء الذين يشترونها في واشنطون ، وبعبارة أخرى أننا خلقنا مصالح راسخة ضخمة بالاحتفاظ بمؤسسة عسكرية ضخمة في وقت السلم وفي تصدير كميات ضخمة من الأسلحة لشعوب أخرى وبالتالي خلقت مصالح ثابتة لاستمرار الحرب الباردة • ويصل كينان في هذا الى حد القول « بأننا

قد جعلنا أنفسنا معتمدين على هذا السلوك القومي الضار الى الحد الذى يمكن القول معه وبلا تحيز انه ان لم يكن هناك الروس كمدعاة لاستخدام وتبرير هذه السياسة فاننا كنا سنخترع خصما آخر ليحل محلهم » .

ويناقش كينان تأثير سيطرة التفكير العسكري على توجيه ادارة العلاقات الامريكية السوفيتية بشكل قد يدفعها الى المواجهة ، ولذلك فقد دعا الى التجرد من الفكرة السائدة بأن الخلافات الأمريكية السوفيتية يجب أن تنتهي يوما ما بالحرب أو أن القوة العسكرية ستكون هي الحكم الرئيسى بينهما . وقد رأى كينان ابتداء أن الحرب بين القوتين ليست حتمية ، والقادة السوفييت أنفسهم لا يريدونها ، وليس هناك فى المصالح السياسية المتباينة بين البلدين ما يجعلها ضرورة أو يبررها . غير أن ما ركز عليه كينان هو أن وضع الاعتبارات العسكرية فى مركز مناقشات العلاقات الأمريكية السوفيتية ، يعني أننا نخاطر بأن نحقق الحرب التى لا نريدها ويجب أن نفعل كل شيء لتفاديها . ويستدل كينان على هذا بخبرة التاريخ التى تقول إن الاعتقاد بحتمية الحرب مع قوة ما يؤثر على السلوك بطريقة تشل كل السياسات البناءة تجاه القوة الخصم وتترك المجال مفتوحا للضغوط والدوافع الفكرية ، فاذا ما نظر الى الحرب كشيء حتمى أو حتى محتمل فانه لابد أن يستعد لها بشكل كبير ، وبالتالى يجعل احتمالات نشوبها أكبر . وينتهى كينان الى أن أكبر خطر كامن فى المنافسة العسكرية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ليس هو خطر هجوم عسكرى سوفيتى على الولايات المتحدة أو على الناتو وانما هو فى امكانية عدم السيطرة على الاندفاع الخطير لسباق التسلح الذى قد ينتهى سواء بشكل إرادى انتحارى أو عن طريق الخطأ الى الدمار .

كان من الاهتمامات الرئيسية لجورج كينان منذ أن كرس نفسه لدراسة الشئون الروسية والسوفيتية —

ولادراكه منذ البداية أن الوضع السوفيتي سيكون هو مركز الاهتمام للسياسة الخارجية لبلاده ـ هو أن يشرح ويحلل هذا الوضع لبني وطنه ويقدمه في أبعاده التاريخية والحضارية وأن يتابع تطور التجربة الثورية التي انبثقت فيه عام ١٩١٧ والمؤثرات والدوافع التي توجه قادتها ، والتجارب التي تعرضوا لها ، والحدود التي يمكن أن يذهبوا اليها في التعامل مع العالم الخارجي ، وامكاناتهم الحقيقية والفعلية ، والدور الحقيقي الذى تلعبه آيديولوجيتهم في توجيه سياساتهم الخارجية ، وحجم مشكلاتهم الداخلية واعتباراتهم الأمنية المستمدة من خبراتهم وخبرات أسلافهم من الحكام الروس من قبلهم ٠

كان هذا الاهتمام هو الذى دفع كينان الى أن يكتب وهو مستشار السفارة الأمريكية وقائم بأعمالها عام ١٩٤٤ « التلغراف الطويل حلل فيه الواقع السوفيتي خلال الحكم الستاليني » ، وكان هو دافعه حين كتب عام ١٩٤٧ مقالته الشهيرة عن « مصادر السلوك السوفيتي » والتي حلل فيها طبيعة الحكم السوفيتي ودوافع قيادته في هذا الوقت والعوامل التى تتحكم فيهم ونواياهم المستقبلة ٠

وقد واصل كينان منذ هذا التاريخ اهتمامه بترشيد تفكير بلاده حول الوضع السوفيتي وخاصة في تطوراته وتطور قواه الاقتصادية والعسكرية والتغير في قيادته وخاصة بعد رحيل ستالين ٠ وقد ازداد اهتمام كينان بذلك خاصة بعد التطورات الداخلية في الاتحاد السوفيتي بعد وفاة ستالين من ناحية ، ومن ناحية أخرى لما لاحظه من تزايد طابع التبسيط الذى يسيطر على تفكير كثير من الدوائر والمؤسسات الأمريكية في فهم وتناول الوضع السوفيتي والمفاهيم التي رآها كينان غير موضوعية والتي تحدد التصور الأمريكي للواقع والأهداف السوفيتية ٠ لذلك نجد كينان بالاضافة الى العديد من المقالات التى كتبها حول المسرح

الداخلي فى الاتحاد السوفيتي وحقائقه يخصص جانبا من كتابه الهام الذى أصدره عام ١٩٧٧ « سحب الخطر » لمناقشة وتحليل عدد من الافتراضات السائدة حول طبيعة النظام السوفيتي ونوايا قياداته آنذاك والتى كانت تتمثل فى قيادة برجنيف ـ كوسيجين ـ بودجورني ـ وقد حدد كينان هذه الافتراضات فى :

(أ) ان طبيعة القيادة السوفيتية لم تتغير بشكل عام منذ بدايات الحرب الباردة ومازالت تلهمها الرغبة والعزم على تحقيق السيطرة العالمية ٠

(ب) ان هذه القيادة السوفيتية تنظر الى المواجهة العسكرية مع الولايات المتحدة كشيء حتمي ٠

(جـ) وانه لهذه الأسباب فان القوة المسلحة السوفيتية هى قوة هجومية وليست دفاعية ٠

وقد حرص كينان على مناقشة هذه الافتراضات لانه شعر أنها اذا تركت بلا مناقشة فان الاعتقاد سوف يترسخ بأن الخلافات فى النظرة والأهداف بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة هي ذات طبيعة تجعل حل هذه الخلافات سلميا أمرا غير متصور ، أو أن حلها لا يتحقق الا بالحرب او بتحقيق جانب التفوق العسكرى الحاسم ٠

ففيما يتعلق بافتراض عدم جدوى تغير طبيعة القيادة السوفيتية فقد اعتبر كينان أن هذا يعنى أن أصحاب هذا التصور لم يحللوا بشكل عميق تطور القيادة السوفيتية ، ورغم أن كينان يوافق أن ستالين فى نهاية أيامه كان قد قبل افتراض مواجهة بين النظامين لا لأنه كان يريد مواجهة أو يراها ضرورية وانما لشعوره أن القوى الغربية مصممة على دفع الأمور الى هذا الحد ، ولكن أيا كانت رؤية ستالين فقد اعتبر كينان أنه لا يجد سببا يستدعى افتراض أن

القيادة السوفيتية التى خلفته حتى عصر برجنيف ترى الأمور بالشكل الذى رآه ستالين · وذهب كينان الى اعتبار أنه مما يجب ألا يؤخذ مأخذ الجد القول بأن القادة السوفيت مستعدون لفقد ملايين من مواطنيهم السوفييت ، فذكريات الحرب الثانية حية فى الاتحاد السوفيتى بأكثر مما هى فى الغرب ·

وعبر كينان عن يقينه بأنه ليس هناك بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ما يريد أى من الجانبين تحقيقه يساوى المخاطر والتضحية بمواجهة عسكرية · وباعتبار التقدير الواقعى لحدود القوة العظمى وخاصة فى حالة الاتحاد السوفيتى فسوف يكون من الأرخص والاسهل والأكثر أمنا وأقل خطورة على المدى الطويل لكلا الجانبين أن يتنازلا فى أى من النقاط موضع الخلاف بينهما على أن يقبل أحدهما كارثة تسببها حرب عالمية · ويضيف كينان ، وكان يشير فى هذا بوجه خاص الى ما تمارسه بعض القوى السياسية الأمريكية تجاه الاتحاد السوفيتى ، الى أن العمل على تجريد الخصم من الاعتبارات الانسانيه Dehumanization والاصرار على النظر اليه كتجسيد للشر ، وأن ما يوجهه ويوجه أفعاله فقط هو الرغبة فى الحاق الضرر بالآخرين هو من أخطر العوامل فى التأثير على المواقف وتحديد السياسات فى أمور خطيرة وحاسمة ، وعلى هذا كان كينان دائم الدعوى الى التخلى عن هذه النظرة فى تقييم قوة عظمى لأخرى وخاصة فى زمن أصبحت فيه الحرب بين قوتين مسلحتين تسليحا نوويا يمثل خطرا مميتا لمن يشترك ولمن لا يشترك فيها ·

أما الافتراض الثانى الذى حرص كينان على تناوله بالتحليل فهو الافتراض الذى شاع عن الاتحاد السوفيتى بأنه قوة توسعية وأنه يسعى للسيطرة العالمية · وفى تقييمه لهذا الرأى تتبع كينان اتجاه الحكم السوفيتى منذ مجيئه للسلطة عام ١٩١٧ ، حيث كانت لديه بالفعل أحلام بالثورة

العالمية ، الا أن قادته في هــذا كانوا يفرقون بين الثــورة والغزو ، فالثــورة كما كانوا يرونها كانت شــيئا يجب ان يأتى فى الدرجة الأولى من عمل البروليتاريا الوطنية فى كل بلد ، وحتى لو قدموا مساعدات لهذه الحركات فانه لم يكن متصورا آن هذه المساعدة سوف تحل محل العمل الثورى من جانب البروليتاريا الوطنية • فعندهم كان دور الشيوعيــة الروسية هو آن تساعد الثورة العالمية لا أن تخلقها • والواقع فى رأى كينان أنه كان يجب أن تمر ثلاث أو أربع ســنوات عــلى قادة النظام الشــيوعى فى روسيا لــكى يدركوا أن الثورة العالمية كما تصوروها لم تكن وشيكة الوقوع ، كمــا لم يكونوا مستعدين لأن يضــحوا بالسـلطة التى كســبوها بصعوبة فى روسيا لمجرد الاسراع بالثورة العالمية • ويشــير كينان الى حقيقة آن لينين قال انه اذا كانت هنــاك فرصــة حقيقية لثورة شيوعية فى ألمانيا فان روسيا يجب أن تضحى لتحقيق ذلك ، ويعقب عــلى ذلك بأنه كان مشروطا بقيــام فرصة حقيقية لثورة شيوعية فى ألمانيــا • ومع عام ١٩٢١ فان الحفاظ على السلطة الشــيوعية فى روسيا وتطــويرها كان قد أصبح الهدف الأعلى للنظام ، وان كانت العبــارات الطنانة عن الثورة العالميــة قد بقيت حيث كانت أســاسية لاعتبارات أيديولوجية • فالتفكير فى انتصار عالمى للنظرية الماركسية وان ظل يمثل أملا بعيدا الا أنه لم يعد يتجســد فى سياسة جادة ملحة وعاجلة ، وهــكذا أصــبحت اعتبارات حماية النظام ومراعاة نقاط الضعفالداخلية تسود وتسيطر على الدوافع الثورية فى عقول هؤلاء الذين يسيطرون عــلى مصائر روسيا السوفيتية • ويواصــل كينان تتبعه لمــكان الثورة العالمية فى التفكير العملى السياسى للقادة السوفيت ، فيقول ان الحرب العالمية الثانيــة قد انتهت بتغيرات هامة ، فمن ناحية فان مشهد قوة شيوعية ضــخمة كان عليهــا أن تحارب جنبا الى جنب مع قوى رأسمالية ضد قوة رأسمالية أخــرى قد قوض فرضــية الصراع الحتمى بين الشــيوعية

والرأسمالية • ومن ناحيـة أخـرى فان الكسب الذى حققه الاتحاد السوفيتى بعد الحرب فى أوربا الشرقية رغم أنه قد اكتسى رداء الشيوعية ، الا أنه كان احياء للنفوذ الروسى التقليدى فى هذه المنطقة ، فقد كان كسبا قوميا أكثر منه كسبا أيديولوجيا • فى نفس الوقت تدعمت الحكومات غـير الشيوعية فى باقى أوربا وظهرت تطبيقات سياسة الرفاهية الاجتماعية والاقتصادية فى شـمال القـارة ، كمـا ظهرت الاتجاهات الانشقاقية فى دول مثل يوغوسلافيا والصين• كل هذه التطورات كانت جـديرة بأن تقوض حلم أن الثـورة الشيوعية قادمة تحت القيادة السوفيتية • ومنذ هذا التاريخ سوف يتصرف الاتحاد السوفيتى كقوة كبرى طبيعية ، حيث أخذت الاهتمامات التقليـدية والطموحات الروسـية مكان الصدارة دون الاهتمامات الأيديولوجية للقـادة السـوفيت وان كان هذا لا يعنى مرة أخـرى أن المفاهيم الأيديولوجية لا تلعب دورا على الاطلاق فى سـلوك هـؤلاء الرجال وفيما يصـدر عنهم من كلمات ، بل ان بروز الصراع السـوفيتى الصينى وخاصة فى المجال الأيديولوجى دفع القادة السوفيت الى تأكيد العبارات الأيديولوجية ولكن خلف ستار الكلمات ، فان رجال الكرملين كانوا فعلا يتصرفون بشكل غالب فيما يتعلق بالشئون الدولية وفقا لتقاليد الحكام الروس للعهود الأولى • فالاهتمامات الحاسمة والمسيطرة كانت هى حمـاية حكمهم داخل روسيا وكذا أمن الوطن الأم الذى هو الأساس الذى لا غنى عنه لسلطتهم •

كذلك كان من العناصر التى حرص كينان على تنبيـه السياسة الأمريكية اليها فى رؤيتها الوضع الروسى فى تطوره هو طبيعة الموقف الداخـلى للقيـادة السـوفيتية خاصة فى التطور الذى أخذته بعد وفاة ستالين ، لذلك نجـد أنه فى تحليله لهذا الموقف فى السبعينيات ــ خلال قيادة بريجنيف وزملائه ــ يعبر عن دهشته من أن المناقشات التى تدور حول العـلاقات الأمريكية السـوفيتية ، وخاصـة من جانب من

لا يريدون لهذه العلاقة أن تتطور بشكل مستقر ، تقوم على أساس لا يختلف عن ذلك الذى كان قائما خلال قيادة ستالين والحرب الباردة ، وأن قراءة هذه المناقشات تجعل المرء يفترض عدم حدوث أى تغيرات هامة منذ وفاة ستالين ، وان الرجال الذين فى السلطة الآن يمثلون نفس المشكلة من وجهة النظر الأمريكية التي كان يمثلها سلفهم منذ ربع قرن مضى، وهو أمر اعتبره كينان بعيدا عن الواقع • وقد حرص كينان على أن يذكر بخصائص القيادة السوفيتية ومعانيها بالنسبة لسلوكها ، فهى تتميز ــ وحديثه كان فى حقبة السبعينات ــ بالعمر المتقدم بشكل غير عادى ، اذ أن متوسط العمر للشخصيات الخمس والست الكبيرة كانت فوق السبعين ، وحوالى نصف أعضاء المكتب السياسى كانوا فوق ٦٦ عاما ، ولم يكن هذا يعني ان هؤلاء الرجال غير فعالين أو يفتقرون الى القدرة على العمل الشاق وانما يعنى أنهم رجال ذوو خبرة من السهل عليهم اللجوء الى سياسات مقامرة أو أن يقدموا على تصرفات من شأنها أن تفرض قيودا اضافية ضخمة على أنفسهم وعلى النظام •

بالاضافة الى عامل السن والتجربة هذا كان كينان ينبه الى عامل كان يراه يشغل القادة السوفيت ويسيطر عليهم وهو اعتبار الواقع والمشاغل السياسية الداخلية ، وفى هذا رأى كينان أن دلائل كثيرة كانت تشيرالى أنه منذ نهاية الحرب الأخيرة لم تكن الاهتمامات الأساسية للقادة السوفيت الا تلك المتعلقة بالمشكلات الداخلية التى تواجههم ولا فى المحافظة على أمن النظام وثانيا لتطوير القوة الاقتصادية لبلادهم والتى كانوا يعلمون أنها رغم كونها أكبر بكثير من الولايات المتحدة فى المساحة والسكان الا أنها فىالناتج القومى نصف الولايات المتحدة • ويستعرض كينان رؤيته للمشكلات الأساسية التى تواجه القيادة السوفيتية فى هذا الوقت ــ وحديثه ما يزال فى نطاق السبعينات ــ فيراها فى مشكلات

الجمهوريات غير الروسية التى طورت احساسا وطنيا وقوميا خاصا بها يفوق ما كان يتوقع أن يكون عليه فى ظل الرابطة الأيديولوجية والحكم السوفيتى ، ثم مشكلة المنشقين ، ومشكلات النمو الاقتصادى والتى رغم ضخامة ما تحقق الا أن ثمة مجالات هامة تثير قلقهم مثل التكنولوجيا وتطوراتها فى مجالات الكومبيوتر والالكترونيات ومشكلات نظام التوزيع للسلع والاسكان وكفاءة العمل ومشكلات الزراعة ٠

ومن الاعتبارات التى كان كينان يركز عليها ويراها تتحكم فى تفكير وسلوك القيادة السوفيتيه اعتبار الامن ، وفى هذا الشأن فان من الاعتقادات التى تسيطر عليها تصور أن هناك قوى تعمل فى السياسة والمجتمع الأمريكى وكذلك فى مجتمعات أوربا الغربية تعادى الاتحاد السوفيتى بشكل مرير ونشط ولن تشعر بأى غضاضة فى استعمال القوة العسكرية ضده اذا ماكانت هناك أية فرصة فى النجاح ٠ ومن ناحية جبهتهم الشرقية فان هاجس الأمن الذى يستولى على القادة السوفيت لا يتعلق بالصين فحسب وانما باليابان أيضا التى يدركون أهميتها البالغة ويعملون على منع أى رابطة بينهما وخاصة فى المجال العسكرى ، الأمر الذى يجعلهم يعتبرون أنه حتى الوجود العسكرى الأمريكى فى المنطقة أفضل من قيام مثل هذه الرابطة بين الصين واليابان، وفى نفس الوقت فهم يتطلعون للحصول على المساعد اليابانية فى تنمية موارد الشرق الأقصى السوفيتى ٠

أما فيما يتعلق بالشرق الأوسط ومكانه فى الاهتمامات الأمنية للقادة السوفيت فان كينان يذكر بأن هذه المنطقة هى أكثر قربا الى الحدود السوفيتية مما هى بالنسبة للولايات المتحدة ، ومن ثم فانه من الطبيعى توقع أن يشعر القادة السوفيت أن مصالحهم وأمن بلادهم تتأثر بشكل خطير بما يحدث فى هذه المنطقة ٠ ومن ناحية أخرى ، فانه بخلاف ما يتصل بأدق الاعتبارات المتعلقة بأمنهم القومى فان القادة

السوفيت ليست لهم مصالح نشطة فى المنطقة تساوى كارثة وقوع حرب مع الولايات المتحدة ، وعلى هذا فانهم يحرصون ــ شانهم شأن الولايات المتحدة ــ على ألا تأخذ الصراعات فى هذه المنطقة أشكالا تقود الى مواجهة بين القوتين ·

ومثلما كانت (نظرية) الاحتــواء من أهم ما تضمنته مقالة كينان عن « مصادر السلوك السوفيتى » التى نشرها عام ١٩٤٧ كما كانت وراء الاهميــة التى اكتسبتها هــذه المقالة ، ومثلما كان الغموض وعــدم التحــديد الذى أحاط بتناول كينان وحديثه عن احتواء القوة الســوفيتية والذى تسبب فى سوء تفسيرها واعطائها أبعادا وتطبيقات لم يكن كينان يقصــدها وصرف بعــد ذلك وقتا وجهــدا كثيرا فى توضــيح ما كان يعنيه بالتحــديد وينتقد التطبيقات التى استندت زورا الى « نظريته » ، كذلك كان الحال فى حديث كينان عن الأسلوب الذى تصــوره فى التعــامل مع القــوة السوفيتية الصاعدة بعــد الحرب الثانية مبــاشرة ، وكذلك كان الوضع مع قضية أخرى أثارها كينان فى مقالة له وهى قضية شرحه وتحليله لطبيعة النظام والســلطة الســوفيتية الداخلية ومظاهرها فى النظام السياسى والاقتصادى · ففى مقالته قال كينان : «ان الشخصية السياسية للسلطة السوفيتية كما نعرفها اليوم هى نتاج الظــروف والأيديولوجيــة التى ورثها القادة السوفيتالحاليون من الحركة التى تمثل أصولهم السياسية ثم ظروف السلطة التى مارسوها الآن لعدة حقب· وهذه الظروف السياسية مثل المسلمة الأيديولوجيــة التى نبعت عنهــا ، هى شىء أساسى للطبيعة الداخليــة للســلطة السوفيتية وسوف تبقى معنا ســواء فى المقــدمة أو المؤخرة حتى تتغير الطبيعة الداخلية للسلطة السوفيتية » ·

فما الذى كان يعنيه كينان بحديثه عن « تغير الطبيعــة الداخلية للسلطة السوفيتية » هــل كان يعنى ويتوقع تغييرا جــذريا فى النظام وفى أساســه الأيديولوجى وفى هياكله السياسية والاقتصادية وبشكل تتغير معه بشكل جذرى أيضا

ممارســاته وتطبيقــاته فى شــئون المجتمع السياســية والاقتصادية ؟ الــواقع أنه مثلما اهتم كينــان باعادة شرح وتوضيح مقاصده الحقيقية من ســياسة الاحتــواء واعترافه بغموض صياغته لها واحتوائها على عدد من أوجه القصــور Deficiency التى أدت الى اســاءة تفســيرها ، كذلك فعــل كينان نفس الشىء عنــد حديثه عن الســلطة السوفيتية وعن التغير الذى يجب أن يحدث فى طبيعتها حتى يمكن ان يستقر التعامل معا • ففى مقالته فى مجلة Foreign Affairs أبريل عام ١٩٥١ ، والتى نشرها تحت عنوان « America and the Russien Future » قدم كينان بشكل أكثر تحديدا ما يجب على الولايات المتحدة أن تتوقعه ، وما يجب ألا تتوقعه من الصور والصيغ وتوجهات الحكم فى روسيا فى المســتقبل ، فقال ان عليها أن تستبعد أن تصبح روسيا دولة رأسمالية وأن يقوم فيها حكم ديمقراطى ليبرالى على النمط الغربى الأمريكى • ويفسر كينــان ذلك من واقع التجربة الروســية التــاريخية والمعاصرة ، فعلى مستوى النموذج الاقتصادى فان روسيا عبر تاريخها لم يكن المشروع الفردى الاقتصادى كما يعرفه الغرب مألوفا بها، فحتى قبل الثورة كانت الحكومة تسيطر على عدد من المشروعات الأساسية مثل النقل وصناعة السلاح ، وحتى فى النطاق الفــردى الذى كان قائما فقــد كان فى مجال تبادل السلع وليس فى مجال الانتاج • وحيث بدأت روسيا عملية التصنيع مع نهاية القرن كان نمط الانتاج وعلاقات المــلاك مع العمال على نسق العلاقات التى قامت عند المراحل الأولى للثورة الصناعية الرأسمالية كما وصفها ماركس وليس على نمط الدول الغربية المتقدمة ، وربما كان هــذا ما جعــل الثورة الماركسية أسهل فى روسيا •

أما الجانب السياسى فقد نبــه كينان الى أنه لا يمــكن توقع نظام سياسى على النمط الديمقراطى الليبرالى ، ذلك أن الجيل الحالى لا يعرف شيئا الا السلطة السوفيتية ، وقد ربى وتعلم أن يفكر فى ضوء هذه السلطة وأحكامها ، وعلى

هذا استخلص كينان أن النظام السوفيتي سوف يستمر فى كثير من جوانبه لأن الطرق البديلة قد دمرت ، وفى جوانب أخرى لأن أى نظام يستمر لحقب من الزمان لا يمكن أن يكون بلا مزايا .

أما شكل الحكومة التي يمكن للسياسة الأمريكية أن تتوقعها في روسيا فى اطار الممكن وما يتفق مع الشخصية القومية الروسية ، فقد رآها كينان في حكومة تكون أكثر تسامحا واكثر استعدادا للاتصال ومخاطبة الآخرين واكثر مباشرة وصراحة في علاقاتها مع الدول الأخرى ، وان تتخلى عن روح الشك وعدم الثقة التى تتعامل بها مع العالم الخارجي وآن تتعامل على أساس الواقع فعلا وآن تنظر الى الدول الأخرى على أنها ليست شرا محضا أو خيرا مطلقا ، على أن كينان ينبه الى أنه حتى مع مثل هذه الحكومة فان المصالح الروسية سوف تستمر وتتأكد بل وسوف تراعى بشكل أكثر قوة وأكثر ثقة .

ويستخدم كينان هذا السياق ، والحديث عن تغير طبيعة السلطة السوفيتية بالشكل الذى تتوقعه السياسة الامريكية لكي يتناول ما يسميه (بالميل الفطرى) لدى الأمريكيين الى الحكم على الآخرين باعتبار أنهم يتطلعون الى أن يصبحوا مثل الأمريكيين ويتبنوا نظامهم ومؤسساتهم ونموذج حياتهم ، فيدعو بنى قومه فى هذا الى آن يدركوا أن المؤسسات الأمريكية قد لا تكون صالحة لشعوب تعيش فى مناخ آخر وظروف أخرى ، وأنه قد تكون هناك نظم اجتماعية وأشكال من الحكومات لا تشبه بحال النظام الأمريكي ومع هذا فهى لا تستحق اللوم .

وبوجه عام فانه أيا ما كان نظام الحكم الذى يقوم فى روسيا فان سلوك هذا النظام تجاه الولايات المتحدة سيكون فى جزء كبير منه رد فعل للتصرفات الأمريكية . وفى رأى

كينان أن السلوك العملى الأمريكى المطلوب والذى يمكن أن يولد تطورا ايجابيا فى السلوك السوفيتى انما يعتمد لا على العسكرية والتسلح أو الاصرار على اقامة التحالفات مع الدول الحليفة رغم أهمية كثير من هذه العناصر ، وانما يجب أن يعتمد على تأثير النمـوذج ، وهـو النمـوذج الذى يجب أن يتضمن شيئا يعطيه معنى ومضمونا ولا يجعله عقيما ، وهذا الشىء فى رأى كينـان ليس هـو نصح الآخـرين وحثهم أو الدعاية الخارجيـة وانما هـو آسـاسا ما يجب آن ينصـح الأمريكيون آنفسهم به وهـو يتعلق بروح وهـدف الحيـاة القومية الأمريكية نفسها ، فأى رسالة يحاول الأمريكيون أن يقدموها للآخرين سوف تكون فعالة فقط اذا ما اتفقت مـع ما ينظرون به الى أنفسهم واذا ما كان فيهـا شىء مؤثر بما فيه الكفاية •

★★★

ومن القضايا التى تعرض لها كينـان قضيتا أوضـاع العـالم الثـالث لارتباطات الولايات المتحـدة والتزاماتهـا الخارجية وعلاقة الولايات المتحدة باسرائيل ، وهما قضيتان متصلتان بمناقشة كينان •

ويتصور كينان آن الأمريكيين ليسـوا محبوبين الى حد كبير فى العالم الثالث ، ويعتبر أنهم ليسوا فى حاجة الى أن يكونوا محبوبين، وآنه كلما أثارت الولايات المتحدة ضجة حول هذه البلدان قلت شعبيتها لديهم ، وعـلى العـكس كلما قل الاهتمام الأمريكى بشئون هذا العالم نظرت شعوبه بشـكل أفضل الى الولايات المتحدة وتحسنت علاقاتها بها وأصبحت أقل توترا •

ويبدو أن معايير كينان العقلية الصارمة جعلتـه يغفل عن واقع ظـروف بلدان العـالم الثـالث وعن تجربتهـا التاريخية ، وما تعرضت له ومازالت تتعرض بفعل الجوانب

غير العادلة فى النظام الاقتصادى العالمى القائم ـ وهو ما سيكون مأخذا لنقاده عليه ، ولهذا نراه ينكر مسئولية الغرب عموما عن المشكلات التى يعانيها العالم الثالث ، ويلقى بالمسئولية كلها على شعوبه فى عملية نهوضها وتقدمها ، ويقول ان الولايات المتحدة قد تقدمت فى نفس الظروف الصعبة وربما أصعب مما تمر به الدول النامية الآن وقد حققت تقدمها بفعل سواعد أبنائها ·

أما عن علاقة الولايات المتحدة ومسئولياتها تجاه اسرائيل فهو يناقشها من زاوية ما يقال عن أن اسرائيل تمثل أهمية حيوية Vital Interest بالنسبة لأمريكا ، وهو يتشكك فى ذلك ويعتبر أن اسرائيل قد تكون مهمة بالنسبة للولايات المتحدة الا أنه لا يعتبرها حيوية بالمعنى الدقيق للكلمة بالنسبة للمصالح الأمريكية ، ويقول انه اذا تعرضت اسرائيل مثلا لأسوأ احتمال فان هذا سوف يصدم الرأى العام الأمريكى الا أن هذا لن يمثل ضررا قاتلا للوجود القومى الأمريكى ·

كذلك يناقش كينان مدى التزام أمريكا تجاه اسرائيل، فيقرر أنه حين أيدت أمريكا انشاء اسرائيل فقد قبلت بهذا جزءا من المسئولية تجاه نجاح هذا المشروع على الأقل فى مراحله الأولى ، الا أن كينان يعتبر أن هذا الالتزام ليس التزاما دائما ومستمرا ·

ويذهب الى أن أى ادارة أمريكية ليس لديها الحق فى أن تلزم السياسة الأمريكية بشكل دائم بمسئولية أمن أرض ليست جزءا من الولايات المتحدة وتقع على بعد آلاف الأميال من شواطئها ، ويذهب الى أنه حتى هذا لا تقبله دولة ذات سيادة من دولة أخرى ·

كان لابد أن يكون للدبلوماسية كمهنة شغلت الجزء الأكبر من حياة جورج كينان العملية وأعطاها معظم وقته

وجهده كان لابد أن تكون لدروسها وخبراتها ولجوانبها المضيئة وجوانبها المحبطة مكان فى كتابات كينان وما سجله عن حياته العملية والفكرية ٠

ومن الخبرات والدروس المباشرة التى سجلها وخرج بها كينان من ممارسة الدبلوماسية هى تلك المتصلة بموقف الدبلوماسى اذا ما وجد نفسه فى موقف صعب بين عدم اقتناعه بسياسة معينة لحكومته وبين واجبه فى الدفاع عن هذه السياسة أمام الحكومة المعتمدة لديها ، ويقرر كينان بوضوح آن الدبلوماسى مادام قد قرر الاستمرار فى وظيفته فيجب ان يكون فى صف السياسة والموقف الذى تتبناه حكومته ، وأن عليه أن يقدمه ويشرحه ويدافع عنه لدى الحكومة والبلد المعتمد فيه بكل مؤسساته ، وأن يفعل أفضل ما يستطيع لكى يتحدث باسم حكومته ، على أنه من ناحية أخرى ومع اختيار الممثل الدبلوماسى لهذا الموقف الا أنه فى نفس الوقت يعتقد بشدة وحزم أنه من الجوهرى للممثل الدبلوماسى، فى اتصالاته المباشرة مع حكومته ، أن تكون لديه القدرة والاستعداد لأن يقول لحكومته رأيه اذا ما شعر أن بعض وجوه سياستها فيما يختص بالبلد الذى يعمل فيه خاطئة ، وأن يقدم لحكومته النصيحة وأن يساعدها على أن تتبنى سياسة أكثر فعالية ٠ على أن خبرة كينان تجعله يقول ان الصعوبة الكبيرة التى تواجه النصيحة التى يقدمها الدبلوماسى ــ والتى يمكن أن تكون فعالة فيما يخص العلاقة مع حكومة أجنبية ــ هو تعارضها مع الواقع الداخلى فى بلاده ، وهى المعضلة التى لا يحلها الا وزير الخارجية أو الرئيس نفسه ٠ وفيما يتعلق بما يعبر عنه الدبلوماسى ويقوله لحكومة أجنبية فان كينان يعتقد آن مثل هذه الحكومة لا يساعدها ولا يهمها أن تعلم ماذا يفكر فيه الممثل الدبلوماسى شخصيا ، وانما يعنيها أن تعلم ما الذى تفكر فيه حكومته وما تنوى أن تفعله ٠ وقد تعلم كينان من مواقف عملية مرت به أن الممثل الدبلوماسى اذا ما اختلف بشكل كبير مع حكومته

فانه لا يجب أن يترك منصبه فى تسرع كبير ، لأنه بذلك يحبط الخير الذى يمكن ان يفعله اذا ما بقى مع المشكلة فى المنصب الذى يشغله لمدة أطول • وقد جعل هذا كينان يحكم على نفسه بالتسرع والتهور لتركه الخدمة لاختلافه مع حكومته وكان يجب ان يكون لديه الصبر ، وهو يتذكر فى هذا عددا من زملائه كانوا رجالا ممتازين ، فقد امتطوا بنجاح عددا من العواصف مع حكوماتهم ، وهى عواصف كانت أسوأ مما واجهه كينان ، ويضرب كينان مثلا على هذا صديقه تومبسون الذى كان سفيرا فى موسكو خلال ازمة طائرة التجسس الأمريكية U2 والتى سببت له يأسا كامل ربما أحدثه هذا العمل الأخرق من ضرر بالعلاقات الأمريكية السوفيتية ، فقد استوعب تومبسون وصمد لهذه الأزمة واستمر يصحح أخطاءها وتداعياتها •

وبعد قرابة ثلاثين عاما قضاها كينان فى العمل الدبلوماسى ، ما هى الصفات التى وجد كينان من خلال خبرته أنها يجب ان تتوفر فى الدبلوماسى بوجه عام والمبتدىء فى المهنة بوجه خاص ؟ يقول كينان فى مقال جميل تحت عنوان Training for Statsman : « ان الصفات المفيدة والفعالة التى عرفتها فى الخدمة الدبلوماسية هى تلك التى تتميز بالمرح والولاء والكرم ومراعاة مشاعر الآخرين » •

أما عما كان يود أن يراه فى معاونيه فى العمل الدبلوماسى فيقول : « انى أستطيع أن أقرر بدون تردد انى أود أن يكون معاونى على قدر جيد من احترام النظام Discipline ، سواء فى التفكير أو الشخصية ، ولكن اذا كان على أن أختار فسوف أختار الرجل الذى أستطيع أن أعتمد على شخصيته حتى لو كان على أن أنمى عقله وتفكيره ، فهو أفضل من شخص درب جيدا فى تفكيره ولكن شخصيته لم تتكون أو لا يمكن الاعتماد عليها » •

ويمد كينان بصره ليس فقط الى من سيمارسون مهنة الدبلوماسية بل ايضا الى اولئك الذين سيعملون بوجه عام فى الحقل الدولى والشئون الدولية فيقول ان نداءه لهؤلاء الذين يعدون أنفسهم للعمل فى هذا الحقل هو أن يقرءوا شكسبير وبلوتارخ وجيبون وربما اللغة اللاتينية واليونانية ، وان يجعلوا من الشرف أكثر الخصائص النفيسة التى يمتلكونها سواء فى تعاملهم مع أنفسهم أو مع الاخرين، وان يتعاملوا بصدق وولاء ، وان يضعوا الثقة فيمن وحيث تستحق ، وأن ينموا فى أنفسهم هذه الصفات من احترام النظام وضبط وتهذيب النفس •

وتختلط في خبرة كينان الدبلوماسية الخبرات الشخصية بالخصائص الذاتية للدبلوماسية وحياتها العملية ، وفى تمييز واضح وموضوعى بين الجانبين يقول كينان انه اذا بدت جهوده الدبلوماسية وقد انتهت بشكل عام بالفشل فان هذا الفشل يجب أن يحكم عليه فى ضوء خصائصه المزاجية والنفسية ، فهذه الاحباطات التى مرت به فى عمله الدبلوماسى هى احباطات شخصية يجب الا يبالغ فيها والا تؤخذ كحكم على العمل الدبلوماسى ، فالدبلوماسية كحياة عملية للانسان يمكن أن تكون تراجيدية فقط فى نتائجها وليس فى خبراتها ، وهو يتذكر آلافا من الأيام على مدى الأعوام الثلاثين لحياته الدبلوماسية حين تميزت الرحلة الى مكتبه ببهجة المشاهد الخارجية وبالاحساس بالانتصار المستمد من الارتفاع من خلال الذكاء على ما قد يواجهه من عدم فهم وتجاوب من الدوائر الرسمية فى بلاده ، وبما يتكون للمرء من صداقات ورفقة ، فضلا عن التعاطف والولاء الذى يلقاه فى منزله وفى مهنة يشترك فيها الرجل والزوجة فى المشكلات والانتصارات والاحباطات بأكثر مما يشتركان فى أى مهنة آخرى ، وأكثر من هذا فقد رأى كينان حياة الدبلوماسى كمهنة تعليمية بأكثر من أى مهنة أخرى، وذات قيمة مضاعفة وثرية لحياة قدر لها أن تكون حياة مؤرخ •

من الأمور اللافتة فى الاهتمامات الفكرية لجورج كينان أنه رغم انغماسه فى شئون السياسة الخارجيه والدوليه لبلاده والعالم الا انه لم ينفصل عن القضايا الداخلية للمجتمع ، وانشغل بما يواجهه من جوانب قصور فى عدد من المجالات ، وقد بلغ اهتمام كينان بالقضايا الداخليه الأمريكية ورؤيته لتأثيرها وتداخلها مع الوضع الدولى للولايات المتحدة الى المدى الذى كان يقول فيه لمن يثيرون خطر التهديد السوفيتى ان المواجهة الحقيقية لهذه التهديدات ـ ان كان ثمة تهديد حقيقى ـ « هو فى التصدى لمظاهر القصور فى الحياة الأمريكية ولما يشعر به الأمريكيون من خجل أمام انفسهم بسبب التفرقة العنصرية ومشاكل المدن الكبرى ومشكلات التعليم والبيئة » • بل ذهب كينان أبعد من هذا ، الى اعتبار أنه فى المفاضلة بين هذه المشكلات الداخلية وبين « اطلاق مركبات الفضاء » فانه سوف يفضل الأولى مئات المرات ، ذلك لأنه فى اعتقاده أنه ما لم يتحقق التقدم بالنسبة لمشكلات الأرض فان أيا من الأقمار الصناعية لن يفيدنا ، فلكى ينتصر انسان ما فعليه أولا أن ينتصر على نفسه •

فى اطار هذا الفهم والاهتمام لقضايا المجتمع الأمريكى الداخلية لم يكن غريبا أن يعطى كينان جانبا من اهتمامه لأزمة خارجية حادة واجهت الأمة الأمريكية وهى الازمة الفيتنامية ، ونعنى بهذه الظاهرة أزمة الشباب الأمريكى وما أحاط بها من غضب واحتجاج وعنف ، واغتراب الشباب فى الجامعات والمعاهد الأمريكية ، وأصبحت بهذا الشكل واقعا ملموسا فى الحياة اليومية الأمريكية •

فمن خلال موقع كينان الأكاديمى وصلته بتيار الشباب، والاحترام الذى يحمله له الشباب ، وان كانوا ظلوا يرونه جزءا من المؤسسات والجيل الذين يوجهون له ثورتهم ، وجه له أعداد منهم رسائل بثوا فيها عناصر احتجاجهم ودوافع غضبهم وثورتهم ، وقد جمع كينان نماذج من هذه الرسائل

اعتبرها تمثل تيار اليسار بين الطلاب وحركتهم وتعبر عن فلسفتهم وجمعها فى كتابه : Democracy and the Student Left الذى أصدره عام ١٩٦٨ ، وقدم لها ثم عقب عليها بمقدمات وتحليلات طويلة ناقش فيها فكرهم واتجاهاتهم ·

بدأ كينان مناقشته تلك بموقف فكرى واضح وهو أنه يقر بان الطلاب يجب أن تشغلهم وتقلقهم أمور مجتمعهم وآن تكون لهم وجهات نظر، وأن يتساءلوا عما يجرى فى مجال الشئون القومية ، وان يعبروا عن وجهات نظرهم حولها · بل ذهب الى ان بعضا من الجيل القديم يشارك الطلاب مخاوفهم وعددا من دوافعهم ، بل ان احساس بعضهم الحى بأخطار هذا الزمن لا يقل عن احساس الطلاب · غير ان وجهات نظر كينان بعد هذا تنطلق من اعتقاده أن واجب الجميع أن يدركوا ليس فقط امكانية آن نكون مخطئين بل التأكد من أنه فى بعض المناسبات لا مفر أمامنا من الاعتراف بذلك ، وهو ما يجعل من الحكمة ادراك عنصر الشك الذى يحيط بما نعتقده عن صحة أحكامنا ووجهات نظرنا ، وينبه كينان الى أنه يعرف ان هذه التحفظات سوف يرجعها شباب الطلاب الى فساد فى التكامل الأخلاقى للجيل القديم الذى أجبرته الحياة على أن يقدم تنازلات دمرت فائدة ما يمكن أن يساهم به ، وان هذا الجيل القديم قد أقعدهم جبنهم وأصبحوا سجناء التواؤمات التى يصنعونها لكى يكونوا جزءا من المؤسسة الأمريكية ، وعلى هذا أصبح هذا الجيل فى نظر الطلاب غير قادر على أن ينظر بثبات الى ضوء الحقيقة القوى الواضح · ويرى كينان فى هذا المنطلق عنصرا له ما يبرره ، فثمة نقطة فى حياة الكبار يفتر فيها حماسهم وتبرد مثاليتهم حين تجبرهم مسئوليتهم تجاه الآخرين على أن يعطوا اهتماما أكبر للحياة الخاصة الدنيوية ، كما أن ثمة نقطة فى الحياة يضطرون فيها الى وضع مطالب الأبناء قبل ما تمليه عليهم مثاليتهم ، ورغم موافقة كينان على ذلك الا أنه يعتقد أن

ضررا أكبر يحدثه هؤلاء الذين يحاولون أن يهاجموا قواعد المجتمع باسم عقائد طوباوية تهدف الى تصفية الشر وتحقيق الخير الامثل خلال حياتهم ، على العكس من الايجابية التي تحدثها جهود متواضعة لهؤلاء الذين يحاولون ان يقيموا نظاما وعلاقات تتسم بالتهذيب في نطاقهم الضيق ، ويضيف كينان الى هذا حقيقة حيوية لا يدركها الكثيرون وهى أن مركز الشر الرئيسى فى هذا العالم لا يكمن فقط فى المؤسسات الاجتماعية والسياسية وانما أيضا فى ضعف ونقصان الروح الانسانية ذاتها ، ولذلك يستخلص كينان أنه اذا كان يشعر بالأسف للطلاب فلأنهم يقعون ضحايا أخطاء فلسفية مدمرة ٠

ويناقش كينان بعض الظواهر السلبية فى حياة الطلاب وسلوكهم مثل تناول المخدرات أو الخضوع السلبى لأحاسيس حسية من نوع أو آخر ٠ ويقر كينان أن الشباب يملكون مصادر رائعه فى داخلهم ، ولكن هذه المصادر لا يمكن اطلاقها بأساليب الهيبز ، فبالجهد وحده وبالعمل وتميز الانسان بشكل خلاق ، وبالارادة يصبح الانسان على وعى كامل بما يملكه من قوة خلاقة ، ويصبح قادرا على تجسيدها وأن يجعلها جزءا من نفسه ويوصلها للاخرين ٠

أما الخطأ الثانى الذى يعيبه كينان على الطلاب فهو اعتقادهم بامكانية وصلاحية الاباحية الكامله Permissivness فهم فى هذا يسيئون الحكم على الطبيعة الداخلية للانسان ، فليس هناك ولا يمكن أن يكون شيء اسمه الحرية المطلقة ، فالحرية تتحدد فقط فى ضوء الالتزامات والقيود والتضحيات التى تقبلها ، وهى تتحدد فقط كمفهوم فى علاقاتها بشيء آخر والذى هو بالتحديد نقيضها ، وهذا يعنى الالتزام والواجب وضبط النفس ٠ وينتهى كينان الى القول : قل لى أى اطار من النظام أنت قادر على أن تقبله ، وسأقول لك ماذا تعنى الحرية بالنسبة لك ، ولكن اذا كنت غير قادر على ألا تقبل أى اطار

من النظام على الاطلاق فسأقول لك كما قال دوستويفسكى لقرائه انك جدير بأن تصبح أكثر الناس عبودية ، لأن الحرية تبدأ فقط بالقبول المتواضع بأن يصبح الانسان عضوا وخاضعا للنظام الطبيعى للأشياء ، والحرية تنمو فقط بالنضال وأخذ النفس بالنظام والايمان والعقيدة •

وينقل كينان تصوره للحياة الدراسية لهؤلاء الذين يرتبطون بها فيصورها على أنها سعى نحو الحقيقة التى لا تاتى بسهولة أو بدون تضحيات أو نظام ، وعلى الذين يرتبطون بها أن يقبلوا التزاما بأن يبثوا النظام لا الفوضى، والنظافة لا القذارة ، ونكران الذات والتجرد لا الانغماس فى اللذات ، والصحة لا التدهور الأخلاقى واضعاف المعنويات •

ويتعرض كينان لبعض مظاهر الضعف فى سلوك الشباب وهو موقفهم غير البار بالآباء ، فيقول انه ليس هناك وهم أكبر من الاعتقاد بأن الانسان يستطيع أن يعامل أبويه بشكل خال من المشاعر وباحتقار ثم يتوقع أن أبناءه سوف يعاملونه يوما بشكل مختلف ، أنهم لا يدركون أن ما يفعلونه هو كسر للسلسلة الذهبية من العاطفة التى تربط الأجيال وتعطى الاستمرار والمعنى للحياة •

وقد نعى كينان على حركة الطلاب افتقادها لأى برنامج سياسى أو اقتراحات بناءة لمواءمة النظام السياسى لحاجات العصر ، ويقول انه اذا كان لديهم مثل هذا البرنامج فانه وكثيرين غيره سوف يحترمونهم ، أما اذا كان ما يقدمه هؤلاء الطلاب هو العنف من أجل العنف ومحاولات لارهاب الادارة فان هذا يجعل كينان وجيله يلتفون حول السلطة العامة للدفاع عنها حتى وان لم يكونوا على اتفاق كامل معها ، ويرون فى هذا مكانهم الصحيح وليس فى جانب الصخب والعنف وعدم التعاون •

علـى أن كينان مع كل تحفظاته وانتقاداته لاتجـاهات حركة الطلاب لا ينتقص من قدر وحدة المشاعر التى تتملكهم، ولا يعطى لنفسه الحق فى ان ينظر اليهم والى ما يتملكهم من مشاعر الغضب وعدم الرضا بشـكل مترفع ، ولا يتجـاهل مسئوليته ومسئولية جيله عن هذه المشاكل وكأنها « لم تكن جزءا من وجههم الكئيب المتحلل الذى يطالعنا من هذه المرآة المشوهة » ، ويعتبر أن لا أحد من جيله يسـتطيع أن يدعى الحق فى أن يدخل فى نقاش مع هؤلاء الطلاب قبل أن يعترف بمسئوليته عن شـعورهم بعـدم السعادة ، وقبل أن يقـرن نداءه لهم باستعداده لأن يشـترك معهم فى محـاولة ايجـاد اجابات افضل لعدد من هذه المشكلات ٠

ويعترف كينان بأنه يدرك تماما أنه فى الاقتراب منهم بهذا الاسلوب وبالاختلاف معهم حـول عنـاصر من نظرتهم وسلوكهـم فان الالتزام يقـع عليه فى الدرجة الاولى وليس عليهم ، ويقول ان مظاهر التطرف والاخطاء الفلسفية وحب الذات والتركيز عليهـا وكل الغـرابة فى الملبس والتصرف انما تعنى أننا نتعامل مع قوم مرهقين وربما مرضى يتصرفون سواء بشكل عاقل أو غير عاقل بدافع من الاخلاص والمثالية ومن قبيل عدم الاستعداد لقبول حياة لا معنى لها ومجتمع بلا هدف ، وهو المجتمع الذى يقر كينان أنه ليس نوع الحياة ولا المجتمع الذى يود الكثيرون من الجيل القديم أن يخلفوه وراءهم حين يتمون رسالتهم ٠

ولعل موقف كينان من حركة الطـلاب ومن مشـاعرهم وفكرهم وموقف الطلاب وتقديرهم لكينان ولفكره ينعكس فى خطاب وجهه له أحد تلاميذه من الطلبة يقول فيه : « انك بالنسبة لى تجسيد للتوازن بين المثالية الواقعية الذى أود أن أحققه لنفسى فى حياتى المقبلة » ٠

فى عام ١٩٨٩ وبعـد قـرابة عشرين عاما من نشره مذكراته السياسية أخرج جورج كينان من أوراقه ـ وبنصح

وتشجيع أصدقائه ـ يومياته الأدبية التي سجلها على مدى أكثر من ستين عاما . واذا كان كينان قد كتب مذكراته السياسية بهدف نشرها على نطاق واسع فان هدفه الأساسى من تسجيله ليومياته هو أن يحفظ ذكرياته من الضياع وأن يسجل ويراقب نموه الثقافى والعاطفى ، ولقد اختار لها أن تصدر تحت عنوان «صور من حياة» Sketches from a life .

واذا كانت مذكراته السياسية قد تضمنت حياته الدبلوماسية والاكاديمية ، فان هذه اليوميات قد احتوت على نظراته وانطباعاته وتاملاته فى المدن والاماكن والطبيعة والبشر المجتمعات التى عاش فيها لفترات طويلة بحكم عمله أو زارها لفترات قصيرة ، وبشكل يمكن معه القول انها شملت العالم أجمع بمدنه وحضاراته الأساسية . واذا كان هذا هو نطاق المعانى لهذه النظرات ، فان نطاقها الزمنى انما يمتد الى قرابة ستين عاما : فالورقة الأولى التى سجل فيها انطباعاته كانت فى ٣٠ أكتوبر عام ١٩٢٧ عن هامبورج ، هذا الميناء الألمانى الذى شغل فيه أول منصب تولاه كنائب قنصل ، أما آخر ورقة سجلها فقد تصادف أن تكون عن زيارته لاحدى المدن الألمانية كذلك فى ١٠ يونيو عام ١٩٨٨ ، وسبقتها مباشرة في يونيو عام ١٩٨٧ زيارة لما كان مسرح حياته الدبلوماسية والفكرية وهى منطقة البلطيق التى درس وتعلم فيها اللغة الروسية وتابع الشئون الروسية فى أوائل الثلاثينات ، ثم موسكو فى فترات عمله فيها منذ بداية الثلاثينات حتى أوائل الخمسينات . ويسجل كينان أن قوى التغيير فى هذا المدى الزمنى كانت أقوى وأعمق مما شهدته أى فترة زمنية مماثلة . ويلاحظ أنه حين بدأ يسجل انطباعاته ويومياته كانت الحرب العالمية الأولى مازالت فى الذاكرة الحية ، وكان ليندربرج يبهر العالم بطيرانه فوق المحيط ، وكان كتاب هذا العصر هم فيتزجرالد وهيمنجواى وتوماس مان . أما العالم الذى سجل عنه كينان انطباعاته الأخيرة فقد تميز بأحداث ضخمة : الركود الاقتصادى فى

الثلاثينات وديكتاتوريات هتلر وستالين والحـرب العالميـة الثانيــة وتجمع سحب الحرب النــووية والكارثة البيئيــة ، وباختصار لم يكن عالم عام ١٩٨٨ الذى انتهى فيه من كتابة انطباعاته هو عالم عام ١٩٢٧ الذى بدأ فيه تسجيل هــذه الانطباعات ٠

غير أن الذى تغير عبر هذه الفترة الزمنية لم يكن فقط المسرح الخارجي وانما كذلك عيون من يسجل هذه الملاحظات، فنائب القنصل الصغير ذو الثلاثة والعشرين عاما الذى سجل ملاحظاته عن هامبــورج عام ١٩٢٧ والذى كانت تسـيطر عليه مشاعر عدم التأكد حول ذاته وتتملكه الدهشة حول كل شيء لم يكن هو الأستاذ المحال الى المعاش عام ١٩٨٨ والذى وان كان يدرك أن مساهمته في الحياة من حوله سواء بالخير أو الشر قد اكتملت الا أنه مازال يتملكه بشكل عميق القلق حول مستقبل بلاده ومستقبل المدنية الغربيــة التي ينتمى اليها ويعتبر نفسه جزءا منها ٠ لذلك لم يكن غريبا أن يكون آخر ما سجله كينان من انطباعات انما تدور حــول هــذه الشجون المتعلقة بالمستقبل لبلاده والمدنية الغربية بوجه عام ٠ في آخر زيارة له لألمانيا في يونيو ١٩٨٨ ـ نجده يقول عن أوربا انها « ٠٠ لم تقطع نفسها فقط من تاريخها ولكنهــا فقدت السيطرة على مصيرها وهى ترتجف الآن تحت هــدير سياراتها وطائراتها غير مبالية بحكمة الماضي وغير راغبــة في أن تبنى فوق القيم التي تبنتهـــا يــوما ما ، وهي في ادمانها لعاداتها في الانغماس في اللذات وانشغالها بتدمير بيئتها وبناء الأسلحة التي يمكن أن تدمر يوما ما ليس فقط هذه البيئة وانما البشرية التى تعيش عليها » ٠

أما قلقه حول مستقبل بلاده فهو الذى جعله يخط هــذه السطور الأخيرة في يومياته ـ نهاية سبتمبر ١٩٨٨ ـ «اننى أنظر الى الولايات المتحدة في هذه السنوات الأخيرة للقــرن

العشرين على أنها أساسا بلد مأساوي وهبه الله مصادر طبيعية رائعة ولكنها تستنفدها وتفقدها بشكل سريع ، كما وهبها نخبة من أهل الفكر والثقافة ذوى موهبة عظيمة وأصيلة ، غير أن القوى السياسية المسيطرة لا تحمل الا فهما وتقديرا ضئيلا لهذه النخبة المثقفة التى سيكتب على صوتها الصمت أو تعلو عليه أدوات الاعلام التجارية ، وربما كان محكوما عليها أن تظل بشكل نهائي ـ شأنها شأن النخبة الروسية المثقفة في القرن التاسع عشر ـ في موقف المتفرج العاجز أمام الاتجاه المعوق لحياة أمتها ٠٠ » ٠

ولا يملك الدارس لحياة كينان أمام هذه السطور التى يخطها في هذا الوقت المتأخر من عمره الا أن يتساءل عما اذا كانت هذه النظرة لشئون بلاده والحضارة الغربية تعكس واقعا حقيقيا أم أنها استمرار لمزاج التشاؤم الذى سيطر على حياة كينان الفكرية وكان فيما نتصور نتاجا لمثاليته وتوقعه للكمال وهو ما يقصر عنه الوضع البشرى أيا كانت درجات تقدمه ؟! ٠

★★★

وفى عام ١٩٩٣ وقد بلغ الثامنة والثمانين من عمره أصدر كينان كتابا ضمنه خلاصة خبراته الدبلوماسية والتاريخية والفلسفية وجاء تحت عنوان دال هو « حول هضبة صخرية ، فلسفة شخصية وسياسية » « Around the Crayed Hill : A personal and Political Philosofy » .

وكتبه بنفس الأسلوب الحاد اللاذع والأنيق الذى تميزت به كتاباته ، وأكد به مكانته كحكيم أمريكى لابد أن يستمع اليه الناس وخاصة المثقفين منهم حتى ولو لم يبالوا بعد ذلك بما قاله ٠ فى هذا الكتاب أعاد كينان النظر فى عدد قليل من أفكاره وطور بعضها ولكنه ظل متمسكا ومدافعا عن كل ما عبر عنه وبشر به حول قضايا أمريكية وعالمية

وفلسفية ، كما أكد به الصورة التي انطبعت عنه كمفكر يستسيغ الاحساس بالغربة خاصة مع الحضارة الحديثه ، وانه رجل تقليدى يتشوق للأيام القديمة ويأسف للحاضر الذى يعيشه • وفى هذا الكتاب أكد رؤيته للطبيعة البشرية « كساحة لنضال لا ينتهى بين الطبيعة الدائبة لدوافع الانسان المتأصلة وبين المطالب الاكثر رقيا وتهذيبا وصقلا ، ورؤيته لهذه المتناقضات باعتبار أنها تدمر وحدة الانسان وتكامله وتشوش جهوده وتضع حدودا على امكاناته ، تضع جانبا من شخصيته فى عداء مع جانب آخر ، ونتيجة لفقدان الانسان لتوازنه تحت هذه الضغوط غالبا ما يتمايل وما يتردد عبر حياته حيث يصل أحيانا الى مرتفعات استثنائية من الانجاز الضرورى ، ولكنه لا يستطيع أن يتغلب بشكل كامل على الاختلافات فى طبيعته بين الجانبين الجسدى والروحى » •

★★★

ومن الأفكار التى راجعها كينان فى كتابه الآخير موقفه من قضية حقوق الانسان والتى غالبا ما أقلقته وظل غير متأكد منها باعتبارها هدفا من أهداف السياسة الآمريكية ، وكان دائما غير متأكد ولا يستسيغ تظاهر الولايات المتحدة بالورع وتقديم نفسها كحكم أخلاقى فى سلوك دول ومجتمعات أخرى ، وتسمح لنفسها بذلك بأن تتدخل فى شئونها الداخلية ، حيث كان ذلك يزعج حاسته كمؤرخ ويتعارض مع نظرته حول الادارة السليمة للسياسة الخارجية • غير أنه فى كتابه الأخير لم يعد ينكر قيمة قضية حقوق الانسان ، ووافق على أنه نتيجة الاهتمام بها أصبحت محصورة فى عدد من الحالات ، « وهذا يعنى أنه فى بعض الظروف فان هناك قيمة أعظم فى مطالب حقوق الانسان اكثر مما كنت ميالا لارجاعها اليها ، ففى العصر الحديث أصبحت المشكلات الداخلية للدول ذات السيادة وبشكل

متزايد مشكلات عالمية ، الأمر الذى أصبح يدعو الى أشكال ومؤسسات جديدة للتعاون الدولى » •

كذلك كان كينان من قبل تمتلكه الشكوك تجاه الامم المتحدة مما جعله يأمل عند التفكير فى انشائها عام ١٩٤٥ أن يتخلى الرئيس روزفلت عن الصدرة بأكملها مهاجما « التناول القانوني والاخلاقي للعلاقات الدولية » أما الآن فان الامم المتحدة اصبحت تبدو فى نظره « الرمز الوحيد لوحدة المصير التى تربط فروع العائلة البشرية ، وسوف تكون خسارة ضخمة وخسارة للبشرية بوجه عام اذا ما أهملنا أو تخلينا عن هذا الرمز » كما أصبح يرى فى الأمم المتحدة وسيلة للتحكم فى الدور الأمريكي بعد أن زادت نهاية الحرب الباردة من بروز الأمم المتحدة فى التعامل مع مشكلات العالم ، غير أن كينان لم ير فى تطور دور الأمم المتحدة هذا سببا فى أن تتخلى الولايات المتحدة عن مسئولياتها فى التعامل مع المشكلات المطروحة ، وانما جعل التعامل مع هذه المشكلات من خلال الأمم المتحدة والأجهزة المتعددة الأطراف بدلا من علاجها بشكل منفرد ، غير أنه رأى أن ذلك يتطلب نوعا معينا من القادة المستعدين للعمل مع الآخرين فى بناء التعاون الدولى ، واعتبر أن هذا هو نوع القيادة التى يجب أن تقدمها الولايات المتحدة للآخرين ولنفسها فى المقام الأول خاصة مع مقدم القرن الواحد والعشرين الذى يبدو متخما بالأخطار وعدم اليقين •

وحينما كان كينان شابا فترة ما بين الحربين وما لازمها من فقدان الوهم حول الديمقراطية فقد تبنى ميلا نحو الحكم القائم على السلطة المطلقة الرشيدة ، الا أنه طور فكره بعد ذلك وأصبح يشك فى أن الحكم السلطوى سيظل دائما يتصرف برشد ، وأصبح يدرك مزايا للحكم القائم على توازن القوى والمؤسسات ، الا أن هذا لم يجعله يتخلى عن اعتقاده القديم بأن الديمقراطية وفقا للخطوط الأمريكية أو الغربية

ليست هي بالضرورة المصير النهائي للبشرية ، بل ذهب الى القول أنه ان لم تكن النظم غير الديمقراطية مهددة للمصالح الحيوية الأمريكية فانها يجب ألا تقلقنا « فلسنا قيمين عليهم ولن تكون » • فى هذا السياق يجدد كينان دعوته القديمة للسياسة الخارجية الأمريكية بأن تكون أقل طموحا وبعدا عن الأضواء ، وأن تمتنع عن التدخل فى الشئون الداخلية للأمم الأخرى ، وأن تدرك أن واجبها الأول هو المصلحة الوطنية ، الا أنها لا يجب أن تنسى أبدا أن أعظم مصلحة يمكن أن تقدمها أمريكا لنفسها وللعالم هى أن تقيم وتنظم بيتها ، وأن تجعل من الحضارة الأمريكية نموذجا للدماثة والانسانية والصحة الاجتماعية وكل ما يمكن أن يستمد منه الآخرون ما يكون مفيدا لهم •

فى الجزء الثاني من كتابه يوجه كينان انتباهه الى حالة المجتمع الأمريكى ، وهنا يواصل الموضوعات التى سبق وعبر عنها ، حيث ـ يرصد ما يتصور أنه جريمة من الاتجاهات الحديثة ومن التكنولوجيا غير المكبوحة ومن المؤسسات التى لا قيود عليها ومن عبادة الاستهلاك وانتشار التوسع فى المدن البيروقراطية والاعجاب الزائد بكل ما هو فخم • وهو ينظر حوله ليرى « تدهورا فى البيئة وتدهورا فى المستويات التعليمية وازديادا فى الجريمة والمخدرات والظروف المرعبة لاحياء الأقليات واليأس والشك والسخرية والارتباك وخاصة بين الشباب، الأمر الذى أدى بعديد من المراقبين الى أن يصفوا هذا المجتمع (وليس بدون حق فيما اعتقد) كمجتمع مريض » •

وفى وصف هذه الظروف الاجتماعية يخصص كينان فصلا خاصا لما يسميه « الادمان » ويعنى به الافتتان بالسيارة والتليفون والاعلانات وكل ما أدانه من قبل ، ولكنه يتحدث عنه الآن بقدر من البلاغة الموجهة ، ويتحدث عن السيارة وعن طابعها غير الإجتماعى وفاقدها وتلويثها للبيئة

وباعتبارها هدية للجريمة ودعوة لانحراف الأحداث ، ومثل السيارة فان التليفزيون عنده « يخفي سيطرته تحت وعد التحرير » بينما هو في الواقع يدعم السلبية ويمارس سلطة شبيهة بسلطة المخدرات وتأثيرا ونفوذا غريبا أشبه بتأثير المنوم على كبار السن ويفسد الشباب • هذا الوضع يؤكد حنيننا الى الماضي حيث يعيش الناس في الريف ويتجولون في الغابات ويقرءون الكتب ويسافرون بالقطارات •

ويقود هذا كينان وهو يتأمل مشكلات الواقع الاجتماعية الي الاعتقاد بأن فشل الحكومة في التعامل مع مجموعة المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والصحية والمالية والتكنولوجية والثقافية أصبحت خارج نطاق السيطرة وبشكل خطير • ان كينان يلاحظ أن المتاعب لها سمة واحدة مشتركة انها متاعب ذات آمد طويل أكثر منها ذات آجل قصير ، والديمقراطية الحديثة ليست مهيأة بشكل كفء للتعامل مع هذه المشكلات الطويلة الأجل لأن الناخبين يطالبون بمزايا قصيرة الأجل بل وعاجلة •

هذه المعضلة تقود كينان إلى التأكيد على دور الصفوة في المجتمع والاعتقاد بأن لا شيء يمكن أن يتحقق بطريقة فعالة بدون قيادة مستعدة ومهيأة للهجوم على المشكلات الطويلة الأجل ، وهنا يبدو كينان غير نادم على تأكيده دائما على دور الصفوة ،مؤكدا أنه اذا ما كان لنا أى أمل فى أن ننزع أنفسنا من الارتباك والحيرة الاجتماعية الكبيرة لهذا العصر فاننا يجب أن نعطى أهمية للصياغة الروحية والأخلاقية والثقافية للفرد بهدف تحسين صفاته في القيادة ، فاذا كان للبشرية أن يكون لها مستقبل يحمله أى أمل فليس هناك مهرب من تأكيد مسئولية الروح البشرية •• » •

غير أن كينان فى تأكيده على دور الصفوة يحرص على التمييز بين الصفوة القائمة على الضمير وتلك القائمة

والمستمدة من امتيازات خاصة ، وهو الفارق الذى نبه اليه توماس جيفرسون بين « الارستوقراطية الطبيعية Natural Aristocracy القائمة على الفضيلة والمواهب ، وبين الارستوقراطية المصطنعة Artificial Aristocracy القائمة على الثروة والمواد » مضيفا أن الارستوقراطية الطبيعية هى أثمن هدية تقدمها الطبيعة لحكومة أو لمجتمع ٠

واتساقا مع هذا الفكر ومع ما نادى به كينان منذ زمن طويل من النظر فى الطرق التى يمكن للصفوة أن يكون لها دور مؤسس فى القرارات الوطنية كان اقتراحه منذ عشرين عاما لتكوين مجمع من الشخصيات الوطنية البارزة يمكن أن يختار من بينهم أعضاء مجلس الشيوخ ، الا أنه فى كتابه الأخير يطور هذا التفكير فيقترح انشاء مجلس دولة Council of State كجهاز استشارى من تسعة أشخاص ليس لأى منهم ارتباط بحزب سياسى ، ويختار هذا الجهاز من مجمع من ١٠٠ فرد ترشح نصفهم لجان حكومية والنصف الآخر لجان قومية متميزة ، ويكلف المجلس ببحث المشكلات القومية الطويلة الأجل ٠ ويرى كينان فى هذا المجلس « صوت حكيم غير متحيز ناقد ولكنه بناء لا ينتقص من سلطان المؤسسة الحاكمة ولكنه يمثل عاليا بما فيه الكفاية لكى يسمع ويعلو فوق تنافرات الطموحات السياسية » ويرى كينان أن مثل هذا المجلس « لن يكون فقط قيدا على رئيس سيىء ولكنه عون وراحة لرئيس جيد » ويوجه اهتمامه للمشكلات الطويلة الأجل ويزوده ببعض الوسائل للتخطيط الطويل الأجل من خلال مستشارين منزهين ٠

ويعاود كينان فى كلماته الأخيرة التأكيد على موضوعين عالجهم باستمرار وهو يتناول المقدرات الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع الأمريكى الموضوع الأول هو مكان المشروع الحر فى الحياة الاقتصادية والثانى هو التكنولوجيا ودورها فى حياة المجتمع ٠

ويكتسب حديث كينان الأخير عن المشروع الحر أهمية في ضوء ما يقوله بأن التجربة السوفيتية القائمة على الحكم والسيطرة الحكومية قد انتهت بكارثة كاملة ، وأنه في ضوء هذا ثمة اتجاه وخاصة في الولايات المتحدة لنبذ فكرة أى نوع من الاشراف الحكومى على العملية الاقتصادية بروح من : « دع المشروع الحر يحملنا الى حيث يريد فسوف يحقق الخير لنا جميعا » ، وينبه كينان حول هذا المفهوم الى اعتبارين الأول هو أن هناك حدودا واضحة جانب منها ذو طبيعة حكومية ، وجانب ذو طبيعة مالية واجتماعية والتى يجب على المشروع الحر أن يذهب أبعد منها وقد أصبح هذا واضحا في عدد من الظواهر المعاصرة مثل الكوارث التى حلت بالمدخرات والآثار البيئية الضارة للمشروع الحر غير المقيد .. ولهذا ثمة حاجة دائما الى احداث التوازن بين متطلبات المشروع الحر وبين متطلبات المجتمع ، وهنا يصبح من مسئولية السلطة العامة أن تضع الحدود وتنبه المشروع الحر الى ما هو مسموح وما هو غير مسموح ، وهو أمر لا يتعلق فقط بهذا الجيل وانما أيضا بالأجيال القادمة . ويعقب كينان فى النهاية أنه « فى نطاق هذه الحدود بارك الله فى المشروع الحر وكتب له الازدهار » .

أما كلمات كينان الأخيرة فى موضوع العلم والتكنولوجيا فهو يبدؤها بتصور ماسيقوله منتقدوه حيث سيقولون: «هذا حسن جدا وقد يكون هذا مفيدا جدا لبداية هذا القرن ولكن ليس لنهايته . وأين كنت خلال هذه الأعوام الثمانية والثمانين من حياتك ؟ وهل لم تدرك أنك تعيش فى عصر من التقدم المتفجر للعلم والتكنولوجيا وهو التقدم الذى يغير فهمنا للطبيعة ولأنفسنا وللظروف البيئية لحياتنا ؟ وهل لا ترى أن معظم هذه التغيرات تجعل معظم ما تتحدث عنه غير ذى موضوع بالنسبة للمشكلات التى تبدأ الآن فى مواجهتها ، وأن ما هو مطلوب منك ليس مجموعة وجهات نظر والتى ربما تناسب بشكل جيد ظروف القرن الثامن

وأن المطلوب هو تلك التى تأخذ فى الاعتبار التقدم العلمى الضخم لهذا العصر والتجديدات التكنولوجية التى أتاحها ، وأين فى وجهة نظرك الضيقة مكان التغيرات الثورية التى أدخلها الحاسب الآلى ؟ وألم تلغ هذه التغيرات صلاحية قدر كبير مما تقوله ؟ ولا تجعل منه أكثر من أهميـة تاريخيـة لأعمال المفكرين الأوائل الذين تعجب بهم ؟ » .

ويعقب كينان بأن كل هذه الأسئلة مشروعة ، ويسجل اجابته عليها بتقديم اعجابه الشديد بتقدم العلم الحديث ، وأنه قد شاهد باحترام كبير ـ وان كان من بعد ثقافى ـ عمل العلمـــاء الذين كانوا يحيطون به خــلال عمله فى معهـد الدراسات المتقدمة ، وانه قادر على أن يدرك عظمة ما كانوا يقومون به ، وأن اكتشافهم للأسرار التى تحيط بهم لم يكن مشروعا فحسب وانما كان اهتماما بديلا وانشغالا بقضايا الفــكر البشرى . ويواصــل كينان تعقيبـه عــلى ملاحظات منتقديه بأنه مع هذا يود أن يوضــح « أن احترامه للجهود العلمية العظيمة وحماسه لإســتمرارها لا يستند الى اعتقاد أنها حققت أو أنها تعد بأن تحقق فى المستقبل أى تغيرات فى الحياة البشرية يمكن أن تؤثر فى طرق النظـر الى الأشـياء والقضايا والاهتمامات . والقلق الذى عكسته كتاباتى كان بالنسبة لى كما هو الشأن مع مفــكر مثــل : الكسندر بوب وكثيرين أن الدراسة الصـحيحة والسـليمة للبشرية كانت دائما هى دراسة الانسان ، وحتى يظهر لى أن التقدم العلمى لهذا العصر قد خفف عن الانسان وخلصه من بعض التحديات الأخلاقية والمعضلات التى تضغط عليه فانه يجب أن أستمر فى اتبــاع ما يعتبره البعض ولعا بالتأمل ، وردود أفعــال رجعية » . ويواصل كينان توضيح موقفه بالقول : « انه فيما يتعلق بالتغير التكنولوجى فهذا شىء آخر ، فهو حقا تغـير ثورى فى سرعة انجازاته فى عدة مجالات، حيث أتاح وأنتج عــددا من التغيرات ذات الأهميـة فى بيئتنـا الاجتماعيـة والشخصية ، وهى التغيرات التى ليس لدينا خيار من أخذها

فى الاعتبار . أما كون هذه التغيرات مفيدة أو أنها أغنت أو أنها قد أحدثت أى تحسن حقيقى فى الوضع الانسانى كل هذا مازال بالنسبة لى أمثلة تنتظر الاجابة ، واجابتى عليها فى معظمها مازال يحيطها الشك . فحين تكون تاثيرات التجديدات التكنولوجية فقط للاسراع بالعملية المتعددة الوجوه للحياة والتى من الواضح أنها بالفعل تتقدم وبسرعة أكبر بالنسبة لحياة وراحة هؤلاء الذين يعيشونها ، وحيث يكون هدف التكنولوجيا الجديدة يبدو فقط فى استبدال العمل البشرى وبشكل كثيف وبسرعة بعمل الآلة أو الجهاز الالكترونى ، وفى مجتمع محمل بالفعل بعبء البطالة هنا يقول كينان : « فان اهتمامى بهذه التجديدات التكنولوجية لن يكون أكثر من اهتمام عارض ، وحيث تكون هده هى الحدود فانى لا ارى أى تحسن هام لظروف الحياة البشرية أو نوعية الكائنات البشرية » .

واتساقا مع طبيعته المتأملة والفلسفية التى لازمته طوال حياته لا يشاء جورج كينان أن ينهى كلماته الاخيرة دون أن يتامل فى عدد من صواهر الوجود البشرى فى عصر المأساة الكامن فى هذا الوجود ، وفيما يواجه الانسان من محن تفسرها الصدفة أكثر مما تفسرها العدالة والتى لا نعرف معها من سيتعرض لها ومن سيهرب منها . وفى ظاهرة العمر المتقدم وما يصاحبها من اضمحلال لقوى الانسان وقدراته ، ومهانة أن يبدو مجرد كاريكاتير لعمره المبكر ، وظاهرة فقدان الانسان لمن يحب وبقائه وحده فى حرمان وفقر وضعف فى القدرة على الاستجابة لتحديات الحياة . هذه الظواهر البشرية والوجودية يراها كينن جديرة بالاعتبار وضرورية اذا ما أردنا أن نتأمل المأزق البشرى ، ويراها فى جوهرها شاهدا على الحدود التراجيدية على توقعات الانسان فى السعادة فى حياته ، كما يراها شاهدا على شىء يبدو أن ماركس وغيره من الماديين لم يدركوه ، وهو أن قدرا من المأساة كامن فى صميم وجود

الفرد البشرى ، وأنه لا يمكن التغلب عليها بأى تدخل جذرى فى العلاقات الاقتصادية والاجتماعية للأفراد ..

ولكن كيف يتوافق الانسان مع هـذا الوضـع البشرى المؤلم ؟ يقول كينان انه اذا كان عليه أن يقدم اجابة شخصية مختصرة على هـذا السـؤال فان ذلك انما يتحقق فقط عن طريق الايمان .

الفصل الرابع

جورج كينان ونقاده

كان من الطبيعي والمتوقع أن تتعرض حياة جورج كينان وأدواره الدبلوماسية وفكره سواء خلال حياته الأكاديمية أو الدبلوماسية للنقد والتقييم والآراء المتعارضة ، فقد كتب وعالج كل مشكلة فى السياسة الخارجية واجهت الولايات المتحدة منذ فرانكلين روزفلت حتى رونالد ريجان ، ولم تكن أفكاره وما اقترحه يتصل فحسب بتنظيم علاقة بلاده مع القوة الكبرى المنافسة وهى الاتحاد السوفيتى ، بل امتد الى علاقاتها مع أوربا الغربية والشرق الأقصى ، والعالم الثالث ، فضلا عن نظراته فى المجتمع الأمريكى ومؤسساته ، ونظراته الفلسفية فى الشئون البشرية •

ففى الوقت الذى اعتبره اليسار ـ خاصة خلال الخمسينيات ـ « مهندس الحرب الباردة ، والخادم الأمين للامبريالية الأمريكية » ، انتقده اليمين الأمريكى من أمثال فوستر دالاس ووليم باكلى ، واعتبره « مهندس الوهم » • كما ازداد هذا النقد حين حاول أن يبث الاستقرار فى العلاقة الأمريكية السوفيتية وينتقد سياسات التسلح الأمريكية ، حيث اعتبروا هذا مهادنة منه للشيوعية والنظام السوفيتى •

كذلك أطلقت عليه أحكام تراوحت ما بين وصفه « بالأسطورة الدبلوماسية » وبأنه « رجل انطباعى وشاعر منقطع الصلة بالشئون الأرضية » ، فى نفس الوقت الذى

يتلقى فيه تقدير المؤسسات الفكرية والأدبية والصحفية ، فقد منحته جامعات آكسفورد وهارفارد وبرنستون وييل درجة الدكتوراه الفخرية ، ونالت معظم كتبه جوائز محترمة مثل جائزة بوليتزر وجائزة الكتاب القومي ، وآنشأ مركز ويدرو ويلسون معهدا باسمه للدراسات الروسية العليا ، تحية لجهوده في هذا المجال • وفي النطاق الأوربي تلقى جائزة ألبرت أينشتين للسلام ، وجائزة رابطة ناشرى الكتب الألمانية باعتباره معارضا قويا لسباق التسلح النووى •

وقد كان من المفارقات أن ينال جورج كينان التقدير والثناء من المؤسسة التي طالما انتقد دورها في السياسة الخارجية الأمريكية وهي الكونجرس الأمريكي ، ففي احدى جلسات الاستماع التي عقدها المجلس في أبريل عام ١٩٨٩ قدمه أحد الشيوخ البارزين بقوله : « أود أن أعرب لك عن التقدير والاعجاب بالمجهودات التي بذلتها طوال حياتك لبث العقل والقوة – التي تأتي من الفعل في السياسة الخارجية الأمريكية •• ان آراءك ووجهات نظرك لم يستمع اليها دائما خلال الستين عاما الماضية ، ولكنك عبرت عنها بوضوح وبلاغة وبنظرة شاملة للتاريخ وبالوضوح الذى كان القليلون قادرين على التعبير به ، وقد نقلت هذا بغض النظر عما هو شائع وما كان يسود من أفكار سياسية • وأعتقد أنك بذلك قدمت مساهمة ضخمة لأمتك ، واني أحييك على هذا وعلى أنك كرست نفسك للخدمة العامة ومازلت تواصلها » •

كذلك كان من المفارقات أن يتلقى كينان في آخريات أيامه التقدير من الدولة التي اعتبرته يوما شخصا غير مرغوب فيه ، ففي زيارة للزعيم السوفيتي جورباتشوف لواشنطون عام ١٩٨٧ خاطبه جورباتشوف بقوله : «•• اننا في بلادنا نعتقد أن الانسان يمكن أن يكون صديقا لبلد آخر ولكنه يظل في نفس الوقت مواطنا مخلصا وعلى ولاء لبلده ، وهذه هي النظرة التي ننظر بها اليك » •

غير أنه رغم هذه المكانة الفكرية التي بلغها كينان ، الا أن عددا من نقاده ظلوا يسجلون عليه عددا من المتناقضات التي رأوها في فكره ومواقفه بالاضافة الى وجهات نظره وتقييمه للاتحاد السوفيتي ، وهو ما سوف نعود اليه فيما بعد ، فقد لاحظوا أنه في الوقت الذى كان فيه من أكبر خصوم النظم الشمولية ، كان ينتقد النظام الديمقراطى الأمريكي ومؤسساته ، بل ويدعو الى أسلوب للحكم أقرب الى النظام الشمولى والى حكومة من المثقفين ومن أقلية حاكمة تمثل الشعب بدلا من تمثيلها لمجموعات السياسيين وجماعات الضغط •

كما وجد نقاد كينان ـ عن حق في رأينا ـ تناقضا غير مفهوم بين عمق كينان وفكره وجوهره الانساني وبين مواقفه من العالم الثالث وقضاياه التي خلت من أى حساسية أو قلق تجاه المظلومين أو تقدير موضوعي للتاريخ الفعلي لبلدان العالم الثالث وما تعرضوا له من استنزاف خلال العهد الاستعمارى أو من ناحية آثار وقوانين الاقتصاد السياسى الدولى المعاصر ، ومقارنته بين الظروف التي واجهها أجداده والتى تمثل اطارا مختلفا من العقبات والدوافع للتغلب على الفقر السائد • كما يأخذ هؤلاء النقاد عليه أنه أغفل أن هيكل الاقتصاد الدولى بالشكل الذى تطور اليه له علاقة كبيرة بفقر بلدان العالم الثالث ، وأنه ما لم يتغير هذا الهيكل فان التنمية الشاملة في هذه البلدان ستظل أكثر صعوبة ، ويذهب نقاد كينان الى أنه لا يريد أن يعترف بذلك لأن هدفه الرئيسى هو اعفاء الضمير الأمريكي والغربى من ذنب ما وصلت اليه ظروف العالم الثالث • أما ما يتفق معه نقاده فى تناوله لقضايا العالم الثالث ـ ونحن معهم ـ فهو « أن التنمية والتقدم تتحقق بدرجة كبيرة جدا من الداخل وليس من الخارج » •

تبقى بعض الملاحظات التي وجهها النقاد على الاطار الفكرى والفلسفى لفكر كينان وتطوره حيث يرون أن

تطور فكره انما ترجع جذوره الى ثنائية من الواضح أنها تتحكم فيه ولا يستطيع أن يتحرر منها ، وهى ثنائية تبدو في جمعه بين المبشر والمكيافيلى ، والدبلوماسى والمثقف ، والرجل الرسمى الذى لا يستطيع أن يتوافق مع حكومته والمحافظ الذى يتشوق الى زمن مضى ، والليبرالى التقدمى ، والرجل العاطفى البالغ التعقيد ، والانعزالى ، كل هذا فى رأى نقاده يصف ويفسر هذه الثنائية وما بدا من عدم التوازن فى أحكامه السياسية ٠

ويقدم النقاد مزيدا من التفسير لما يرونه من تناقضات في فكر كينان خاصة فى كتابه « سحابات الخطر » بأنها تتصل بما وصفه كينان نفسه فى مذكراته لمعاناته فى كل حياته من صراعات لم يتمكن من حلها ، صراعات حول نفسه وعمله وأهدافه وعلاقته بالأمة الأمريكية وثقافتها ، ويعتبرون أنه حاول أن يخفى هذه الصراعات ، والتناقضات باحساسه الشديد بخطورة معتقداته ، وبالجدية البالغة وأقواله البابوية وأحكامه التى يصدرها على الغير وتصرفاته وكأنه يظن نفسه قاضيا أكثر منه طرفا فى نزاع ٠

وباعتبار أن جورج كينان قد كرس معظم حياته الأكاديمية والدبلوماسية لدراسة الشئون الروسية والسوفيتية ، وأن اسمه قد ارتبط بسياسة الاحتواء واعتبر أنه منظرها ، وأنه من ثم قد قدم الاطار الفكرى والنظرى لسياسة الحرب الباردة ، كما قد ظل لقرابة نصف قرن ينصح بلاده بكيفية التعامل مع الاتحاد السوفيتى ونظامه ، ويحلل وينتقد سياسات الادارات الأمريكية المتعاقبة فى ادارتها للعلاقات الأمريكية السوفيتية خاصة فى تركيزها على البعد العسكرى فى سباق التسلح خاصة فى العصر النووى ، كان من الطبيعى ازاء كل ذلك ، وبعد انهيار الاتحاد السوفيتى كدولة وكنظام وكقوة كبرى منافسة ومن ثم انتهاء سياسات الحرب الباردة ومنافساتها ، آن تستعاد

وتقيم أفكار كينان ومدى اتساقها مع ما انتهت اليه التجربة السوفيتية •

في هذا الشأن لابد من الرجوع الى نقطة البداية ، ونعنى بها مقالته التى كتبها عام ١٦٤٧ عن « مصادر السلوك السوميتى » والتي اودعها نظراته في النظام السوفيتي وكيفيه التعامل معه ورؤيته لمستقبله • في هذا المقال – كما سبق ان أشرنا – دعا كينان الى « الاحتواء الطويل الاجل ، الصبور ولكن الحازم والنشيط للاتجاهات التوسعية السوفيتية » ، والى « دعم الاتجاهات التي يجب بعد ذلك أن تجد مخرجها سواء في انهيار او التطويع التدريجى و Gradual Mellowing للسلطه السوفيتية » • وقد اعترف كينان بالصياغه الغامضة لهذه المقالة والتى تدفع الى اساءة التفسير ، الا أنه ظل يؤكد أنه لم يكن يقصد اللجوء أو التركيز على الصيغ العسكرية التى لجأت اليها ادارة ترومان وصبغت بها اتجاه الحرب الباردة ، ولكنه كان يبنى تصوره على أساس اعتقاده بالضعف الكامن في النظام الشمولى وأنه غير مستقر في جوهره وأنه اذا ما دب الضعف في الطبقة العليا التى تتحكم فيه فسرعان ما تدب الفوضى في كيانه كله ، ومن ثم كرر كينان في تفسيره لمقالته أنه اذا اتبع الغرب سياسة ناجحة صبورا من الاحتواء الذى يعتمد على العناصر الاقتصادية والسياسية والثقافية ويقدم به الغرب نموذجا ناجحا فان شيئا من اثنين سوف يحدث : اما أن يجبر الاتحاد السوفيتي على التفاوض من مركز الضعف حول المشكلات الرئيسية ، أو أن يتحقق الهدف النهائى وهو انهيار النظام من الداخل من خلال ضعفه الداخلى •

فاذا ما أخذنا بتفسير كينان هذا لما قصده بالفعل وهو ما يتسق في الواقع مع كل شروحه وتفسيراته ومواقفه منذ صدور مقالته – فان نبوءته بهذا الشكل تكون قد تحققت وتشخيصه وفهمه للنظام السوفيتى كان سليما ودقيقا •



غير آن نقاد كينان يواجهونه بما كان يدعو له من مهادنة الاتحاد السوفيتي ونقده الشديد لسياسات التسلح الامريكية وخاصة فى صورها المتطرفة مثل برنامج الدفاع الاستراتيجى SDI وهى السياسات التى يعتبرون أنها كانت العامل الحاسم فى اقناع القيادة السوفيتية بالعدول عن المنطلقات التقليديه فى السياسة الخارجية السوفيتية بل واعادة النظر في أركان النظرية السوفيتية وهى عمليا التى أنهت الحرب الباردة وبدون ثمن تقريبا • غير أن كينان يدافع عن مواقفه ويرد على منتقديه بقوله : «بل قد دفعنا الكثير، دفعنا انفاقا عسكريا غير ضرورى لمدة ٤٠ عاما ، ودفعنا من خلال رعاية الأسلحة النووية الى الحد الذى أصبحت فيه الترسانات النووية غير مجدية ، ومازالت حتى اليوم خطرا على بيئة العالم • كما قد دفعنا ثمنا فى صورة تحكم الشيوعية فى شرق أوربا والأضرار التى ألحقتها بالبنية الحضارية لبلدانها • لقد دفعنا كل هذا لأننا كنا خجولين جدا من آن نتفاوض » •

كذلك دفعت التحولات السياسية والاجتماعية التى آتى بها جورباتشوف الى الاتحاد السوفيتي واتجاه النظام الى الديمقراطية واقتصاديات السوق ، تلك التطورات التي تدعمت أكثر بعد انهيار النظام السوفيتي ، دفعت هذه التطورات بنقاد كينان الى تذكيره بما كان يردده دائما ويذكر به من يتوقعون ويعملون على احداث تغييرات فى النظام السوفيتي من تقديره بعدم احتمال أن يتبنى أى نظام يقوم فى الاتحاد السوفيتي النموذج الليبرالى الغربى سواء فى نظامه الاقتصادى أو السياسى ، واستناده فى هذا الى آن الروس لا يعرفون هذا النموذج وليست لهم تقاليد أو أصول له فى تربتهم أو خبرتهم التاريخية •

وقد رد كينان على هذه الملاحظات وبشكل يتسق مع مواقفه السابقة وتوقعاته • ففى شهادة له أمام لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ الأمريكى فى أبريل عام ١٩٨٩

تحدث كينان حول العملية الديمقراطية التى بدآها جورباتشوف ، وكذلك عن الصيغة المقبلة للاقتصاد السوفيتي وفقا لخطوط تفكيره السابقة • فحول مستقبل الديمقراطية في الاتحاد السوفيتي قال كينان أنه لا يعتقد فى امكان فهم الجماهير الروسية فى الوقت الحاضر لمبادىء الديمقراطية ، فقد تكره الجماهير المعاملة السيئة للحكومات وتتطلع الى مبادىء حقوق الانسان ، الا آنه حين يصل الأمر الى ممارسة النظام الديمقراطي بما يتميز به من قيود وتوازنات Checks and balances ، وكذلك من حلول وسط compromises التي يجب آن تتوصل لها القوى السياسية المتنافسة ديمقراطيا ، فإن وقتا طويلا سوف يمر قبل أن يصل الشعب الروسى الى مثل هذه الصيغة •

أما عن طبيعة النظام الاقتصادى الذى يمكن أن يستقر في روسيا فقد أعاد كينان ما كان يردده عن عدم اتفاقه مع توقع أن يتبنى الاتحاد السوفيتي الاقتصاد القائم على المشروع الفردى كما هو معروف في الولايات المتحدة • أما النموذج الذى يتوقع كينان آن يتطور في روسيا فهو النموذج الشبيه بما حد فى الدول الاسكندنافية التى حكمتها فى البداية الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية وهى أساس أحزاب اشتراكية ثم تطورت الى الشكل والمستوى الذى استطاعت فيه اقتصادياتها آن تواجه متطلبات المنافسة الدولية •

بعد هذا التقييم والنظر النقدى فى آفكار جوج كينان وتطوره الفكرى ، يحق أن نشارك من يتساءلون ان كان يمكن القول ان جورج كينان كانت له نظرية Theory متماسكة تحكم وتوجه فكره • الواقع أن الأهم من هذا السؤال هو البحث عن جوهر ما دافع عنه كينان ، وسوف نستخلص من هذا البحث أنه اذا كان لكينان نظرية أو مذهب فهو باختصار المذهب الذى كان مزيجا من الواقعية التى تمتزج هى الأخرى بمبادىء سياسة القوة Power Politics

وعناصر السلطة المحافظة التى تمتزج أحيانا بالرومانسية والاحساس بالواجب القائم على المفاهيم الدينية والأخلاقية ٠

واذا ما حاولنا آن نتتبع أصول الواقعية فى فلسفة كينان فسنجد انها تستمد جذورها من نظرة للحياة الانسانية تؤكد على عنصر المأساة والسقوط ، فقد كان كينان على وعى دائم بعدم استمرارية التجربة الانسانية وتعرضها للانقطاع بل والزوال ، وبظاهرة الظلم المرتبطة بالصدفة ، وتأثر بما أخذه عن فرويد من الصراع الذى لا ينتهى والذى شهدته المجتمعات للنظام وضبط النفس ، كما لم يشك كينان فى تحيز المعرفة والفهم الانسانى وفى الفساد الكامن فى الشخصية الانسانية ٠ وباعتبار أنه شاهد عن كثب الآثار السيئة التى يحدثها فى الفرد الفقر والحروب وعمليات التطهير ، فقد وصل الى نتائج كئيبة حول قدرة الناس على العنف والقسوة ، وكان يقول : « ان أسلوب المذعور ، والعنف المتسم بالفوضى لصيق دائما بطبيعة الانسان بأكثر مما يفترض بعضنا » ٠

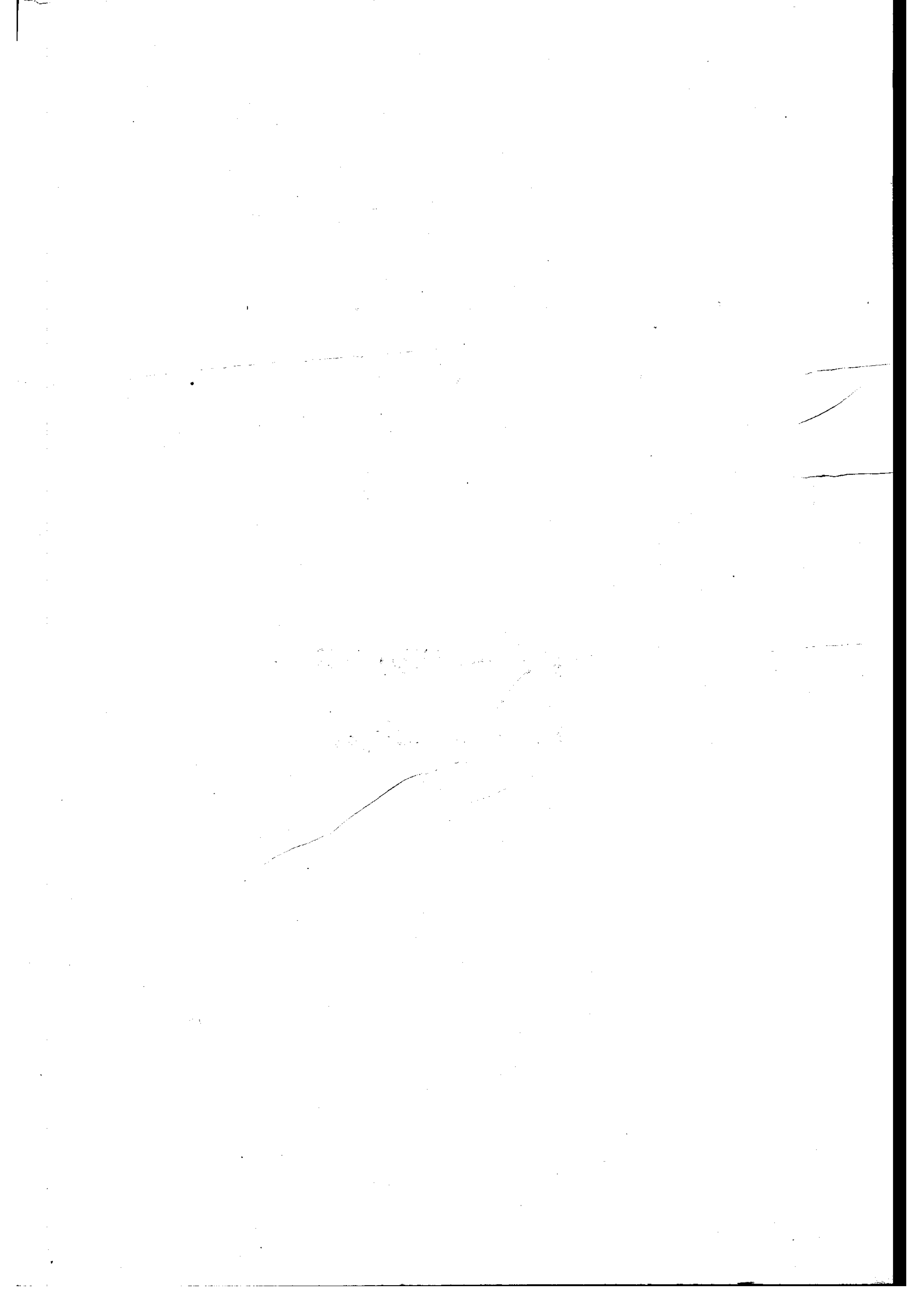
بهذه النظرة واعتقاده فى عدم كمال الحياة البشرية ، فقد كرر كينان أن الحكومات والمواطنين سوف يخدمها أكثر آن تكون متحفظة بشكل واع ومدركة بل ومتواضعة فى توقعاتها ومشروعاتها وطموحاتها ٠ لهذا كان كينان على شك عميق فى البرامج والمشروعات الكبرى مثل برنامج الدفاع الاستراتيجى والصيغ الفلسفية والاجتماعية الكبرى التى ترى أنها قادرة على تحقيق وضمان السعادة والأمن للانسان آو عنصر المأساة فى الحياة ، أو التغلب على التيارات غير العقلانية التى تتدفق عبر الأمم والأجناس ٠ ازاء هذا الواقع البشرى ليس هناك أمام الأمم والمجتمعات والأفراد الا آن تواجهه بالاعتدال والتسامح والتواضع ٠

وشأن معظم المحافظين التقليديين ، كان كينان يدرك رهافة وهشاشة الحضارات والمدنيات وعدم تحملها للصدمات

العنيفة التى تسببها الحروب الحديثة أو التغيرات السريعة والمفاجئة ، ولهذا فقد دعا دائما الى دبلوماسية وجهد دولى قوى لاجهاض العنف على نطاق العالم ، والى أن تجىء التغيرات الاجتماعية والتكنولوجية بشكل تدريجى حذر ، ولذلك ـ شأنه شأن بيرك ـ حذر كينان باستمرار من أن التغير المفاجىء يمكنه أن يفتت النسيج الحى للمجتمع ويسبب أضرارا أوسع مما يتخيله أحد • ولعل التغيرات الجذرية التى حاولها جورباتشوف فى النظام السوفيتى ، وما انتهت اليه من تفكك البناء السوفيتى كله ، دليل على هذا التصور ،

قائمة بمؤلفات جورج كينان ،

ومراجـــع الدراســـة



اولا : مؤلفات جورج كينان

١ ـ الكتب

American Diplomacy : 1990-1950. New York, New American Library, 1951. (Includes reprints of both the X-Article and « America and the Russian Future » from Foreign Affairs.)

Realities of Americen Foreign Policy. (The Stafford Little Lecture Series). Princeton University Press, 1954, the Norton edition (New York, 1966) has a new foreword by the author.

Soviet — American Relations, 1917-1920 (Volume One) : Russia Leaves the War. Princeton, Princeton University Press, 1956.

Russia, the Atom and the West. (The BBC Reith Lectures). New York, Harper & Brothers Publishers, 1957.

Soviet — American Relations, 1917-1920 (Volume Two) : The Decision Intervene. Princeton, Princeton University Press, 1958.

Russia and the West under Lenin and Stalin. (The Chichele Lectures Oxford). Boston, Little, Brown and Co ; 1960.

Soviet Foreign Policy, 1917-1941. Princeton, D. Van Nostrand Company, Inc ; 1960.

On Dealing With the Communist World. (The Elihu Root Lectures). New York, Harper & Row, 1964.

Memoirs, 1925, — 1950 (Volume One). Boston, Little, Brown and Co ; 1967.

Democracy and the Student Left. Boston, Little, Brown and Co. 1968.

From Prague after Munich : Diplomatic Papers 1938-1940. Princeton, Princeton University Press, 1968.

The Marquis de Custine and his RUSSIA IN 1839. Princeton, Princeton University Press, 1971.

Memoirs, 1950-1963 (Volume Two). Boston, Little, Brown and Co ; 1972.

The Cloud of Danger : Current realities of Americen Foreign Policy. Boston, Little, Brown and Co ; 1977.

The Decline of Bismarck's European Order (Volume One of Franco-Russian Relations, 1875-1890). Princeton, Princeton University Press, 1979.

The Nuclear Delusion : Soviet-American Relations in the Atomic Age. New York, Pantheon, 1982.

« Sketches From A Life » Panthon New York, 1989.

« Around the Craged Hill : A Personal end Political Philosophy » W. W. Norton. 1993.

٢ – المقالات

(AS « X ») « The Sources of Soviet Conduct. » Foreign Affairs. July 1947, Pages 556-82.

« Current Problems in the Conduct of Foreign Policy. » the Department of State Bulletin, May 15, 1950. Pages 741-SI.

Lectures on Foreign Policy. « Illinois Law Review, January-February 1951. Beginning Page 730.

« America and the Russian Future. » Foreign Affairs, April 1951. Pages 351-70.

« Where Do you Stand on Communism ? » The New York Times Magazine May 27, 1951.

« Americen Troops in Russia : The Ture Record. » Atlantic Monthly, January 1953. Pages 36-42.

« Training for Statemanship. « Atlantic Monthly, May 1953. Pages 40-43.

« The Nature of the Challenge. « the New Republic, August 1953. Pages 9-12.

« Credo of a Civil Servant » Princeton Alumni Weekly, February 12. 1954 Pages 10-13.

« The Sisson Documents. « Journal of Modern History, June 1956. Pages 130-54.

« When the Russians Rose Against the Czar. » The New York Times Magazine, March 10, 1957. Beginning Page 9.

« Disengagement Revisited. » Foreign Affairs, January 1959. Pages 186-210.

« Our Aid to Russia : A Forgotten Chapter. » The New York Times Magazine, July 19, 1959. Beginning Page 8.

« History and Diplomacy as Viewed by a Diplomatist », in Stephen Kertesz and M. A. Fitzsimons, eds ; Diplomacy in a Changing World. Notre Dame, University of Notre Dame Press, 1959.

« The Ethics of Anti-Communism ». University ; A Princeton Quarterly, Number 24, Spring 1965, Pages 3-5.

« Why Do I Hope ? » University : A Princeton Quarterly : Number 29, Summer 1966 Pages 3-5.

« Peaceful Coexistence : A Western View. » Foreign Affairs, October 1967, Pages 1-21.

« To Prevent a World Wasteland : A Proposal. » Foreign Affairs, April 1970. Pages 401-13.

« What We've Lost in Vietnam ». Outlook Section, The Washington Post, January 14, 1973.

« Reflections .Two Views of the Soviet Union. » The New York, November 2, 1981. Pages 54-62.

« On Nuclear War » New York Review of Books, January 21, 1982. Pages 8-12.

« The Gorbachev Prospect » The new York Review of Books, January 21, 1984.

مقابلات منشـــورة معه

Berger, Marilyn « An Appeal of Thought. » « The New York Time Magazine, May 7, 1978 Beginning Page 43.

Lasky, Melvin J. « A Conversation » (C. 1959) Reprinted in George F. Kennan, et a ; « Encounters With Kennan » : The Great Debate. London, Frank Cass and Co.; Ltd., 1979.

Kennan, George F. Appearance on Meet the Press. Washington, Kelley Press. January 3, 1982.

Severeid, Eric. « A Conversation With George Kennan » Vital History Cassettes. Encyclopedia Americana/ CBS News Audio Resource Library. March 1975.

Urban George With George F. Kennan. « A Conversation » Encounter, September 1976. Reprinted in Encounters With Kennan end excepted in Martin F. Herz ; ed ; Decline of the West ? George Kennan and His Critics. Washington, Ethics and Public Policy Center, 1978.

« X » Plus 25 : Interview With George F. Kennan. « Foreign Policy, Number 7, Summer 1972. Pages 5-21.

اوراق غير منشـــورة له

« Measures Short of War (Diplomatic). « National War College, Washington. September 16, 1946.

Stenographic transcript. Lecture to Foreign Service and Department Personnel. Washington. September 17, 1946.

« Trust as a Factor in International Relations. » Yale University. October 1, 1946.

« Background of Current Russian Diplomatic Moves » National War College. December 10, 1946.

« Requirements of National Security. » National Defense Committee, Chamber of Commerce, Washington. January 23 1947.

« Russian-American Relations. » University of Virginia, Charlottes-ville. February 20, 1947.

« Orientation and Comments on National Security Problems. » National War College .March 14-28, 1947.

« Current Problems of Soviet-American Relations. » Naval Academy, Annapolis. May 9, 1947.

« Planning of Foreign Policy ». National War College. June 18, 1947.

« What Is Policy ? » National War College, December 18, 1947.

« Foreign Policy Aims and Military Requirements. » Council on Foreign Relations. June 4, 1948.

« Where Are We Today ? » National War College. December 21, 1948.

« Where Do We Stand ? National War College. December 21, 1949.

مقالات واحاديث اخرى

Foreign Relations of the United States. Washington, Government Printing Office Volume Cited are : 1946, VI ; 1947, V ; 1948, I, III 6949, IX.

Kennan, George F. « Russia and the United States. » (Pamphlet.) Stamford, Overbrook Press, 1950. (Reprints Speech Delivered May 27, 1950, in New York).

———— Miscellaneous Pamphlets, 1951-1953. Princeton, Princeton University Library.

———— Address before the Pennsylvania Bar Association. Manuscript. January 16, 1953. Princeton, Princeton, University Library.

———— « America After Vietnam. » (Pamphlet). Williamsburg Colonial Williemsburg Press, 1968.

———— Remarks delivered on the occasion of receiving the Albert Einstein Peace Award. July-August 1981.

The New York Times. Various articles, 1947 to 1982.

The Washington Post. Various articles 1947 to 1982.

Hearings Before the Commeite on Foreign Relations, U-S Senate, April 4, 1980.

ثانيا : مراجع عن جورج كينان

Acheson, Dean. Present at the Creation : My Years in the State Department. New York, W. W. Norton & Co., 1969.

Barber, Joseph, ed. The Containment of Soviet Expansion : A Report on the Views of Leading Citizens in Twenty-Four Cities. New York Council on Foreign Relations, 1951.

Gellman, Barton, « Contending With Kennan, Toward A Philosophy of American Power » Prager, 1985.

Beitz, Charles. Political Theory and International Relations. Princeton, Princeton University Press, 1979.

Bohlen Sharles E. Witness to History, 1929-1969. New York ; W. W Norton & Co ; 1973.

Brodie, Bernard. War & Politics. New York, Macmillan Publishing Co ; Inc ; 1973.

Burnham, James. Containment or Liberation ? An Inquiry into the Aims of United Syates Foreign Policy. New York, The John Day Company, 1952.

Carr, Edward Hallett. What is History ? New York, Vintage Books, 1961.

Earle, E. M. Makers of Modern Strategy : Militery Thought From Machiavelli to Hitler. Princeton University Press, 1944.

Gaddis, John Lewis. Strategies of Containment : A Critical Appraisal of Postwar American National Security Policy. New York, Oxford University Press, 1982).

Herz, Martin F ; ed. Decline of the West ? George Kennan and His Critics. Weshington, Ethics and Public Center, 1978.

Kennan, George F. et al. Encounters With Kennan : The great Debate. London, Frank Cass and Co. ; Ltd; 1979.

Kissinger, Henry. White House Years. Boston, Little, Brown and Co ; 1979.

Lippmann, Walter. The Cold War : A Study in U.S. Foreign Policy. New York, Harper and Brothers Publishers, 1947.

Steel, Ronald, Walter Lippmann and the American Century. Boston, Little, Brown and Co ; 1980.

Yergin, Daniel. Shattered Peace. Boston, Houghton Mifflin Co., 1977.

Acheson, Dean. « The Illusion of Disengagement. » Foreign Affairs. April, 1958. Pages 371-82.

Lord Chalfont « Why America Must Ignore This Man. » The Times, May 2, 1978.

Gaddis, John Lewis. « Containment : A Reassessment. » Foreign Affairs, July 1977. Pages 873-87.

Cati, Charles. 3 « What Containment Meant. » Foriegn Policy, Summer 1972, Pages 22-40.

Halle, Louis. « George F. Kennan and the Common Mind » Virgtia Quarterly Review, Winter 1969 Pages 46-57.

Kateb, George F. Kennan : The Heart of a Diplomat Commentary, January 1968. Pages 21-26.

Knight Jonathan. « George Frost Kennan and the Study of American Foreign Policy : Some Critical Comments. Western Political Quarterly, March 1967. Pages 149-60.

Lebedz, Leopold. « The Two Minds of George Kennan : How to Un — Learn From Experience. » Encounter, April 1978.

———— « A Last Critique. » Encounter, July 1978.

Luttwak, Edward N. « The Strange Case of George F. Kennan. From Containment to Isolationism. » Commentary, November 1977.

Mark, Edward. « What Kind of Containment ? » in thomas G. Paterson, ed ; Containment and the Cold War. Reeding. Massachusetts, Addison Wesley Publishing Company, 1973.

The Question of Containment :A Reply to John Lewis Gaddis. « Foreign Affairs, January 1978. Pages 428-41.

Novak, Michael. « George X. Kennan Versus George Y. Kennan. » The Washington Star, December 29, 1977.

Rostow, Eugene V. ? « Searching for Kennan's Grand Design » The Yale Law Journal, June 1978 Pages 1527-48.

Seabury, Paul. « George Kennan vs. Mr. X. The Great Container Springs a Leak. « The New Repulbic, December 16, 1981. Pages 17-20.

Sigal, Leon V. « Kennan's Cuts » Foreign Policy, Number 44, Fall 1981. Pages 70-81.

Steel, Ronald. « Russia, the West, and the Rest », New York, veview Books, July 14, 1977, Pages 19-22.

Taft John. « Grey Eminences, X : A Diplomat For the Eighties. » The New Republic, March 17, 1979. Pages 19-21.

Ullman, Richard H. « The Realities of George F. Kennan. » Foreign Policy, Number 28, Fall 1977. Pages 139-55.

Wright C. Ben. « Mr. X and Containment. » Slavic Review. March 1976. Peges 1-31.

——— « A Reply to George F. Kennan. » Slavic Reviev, Pages 318-20.

Mayers, David, « George Kennan and the dilemus of U.S. Foreign Policy » Oxford University Press, 1988.

« From Architect of Containment to Critic : George F. Kennan and the Soviet threat ».

ورد فى كتـــاب

Paterson, Thomas, « Meeting the Communist threat ». Oxford University Press, 1988.

— Hixon, Walter, « George Kennan, Cold War Columbia University Press, 1948.

— Stephanson, Anddero, « Kennan and the art of Foreign Policy », Howard University Press, Cambrigde, 1984.

— Wilson D. Miscamble, « George Kennan and the making of American Foreign Policy, 1947-1950 », Princeton University Press, 1992.

المؤلف

د . السيد أمين شلبى

- من مواليد ١٩٣٦ .
- حصل على الدكتوراه فى العلوم السياسية من جامعة القاهرة عام ١٩٨٠ .
- التحق بالسلك الدبلوماسى عام ١٩٦١ .
- ساهم فى تأسيس معهد الدراسات الدبلوماسية عند انشائه عام ١٩٦٦ ، وعمل فى ادارته حتى عام ١٩٦٩ ، ثم نائبا لمدير (١٩٨٦ - ١٩٨٨) .
- وعمل فى سفارات مصر فى : براج - موسكو - لاجوس - ووزيرا مفوضا فى سفارة مصر فى واشنطون (١٩٨٢ - ١٩٨٦) ، ثم سفيرا لمصر فى النرويج (١٩٩٠ - ١٩٩٤) . حاصل على وسام الاستحقاق النرويجى .
- عمل مديرا لادارة التخطيط السياسى بوزارة الخارجية (١٩٩٤ - ١٩٩٦) .

صدر له :

١ - التنظيم الدولى فى مفترق الطرق .

٢ - هنرى كيسنجر . حياته وفكره .

٣ - الوفاق الأمريكى السوفيتى ١٩٦٣ - ١٩٧٦ (الهيئة العامة للكتاب) .

٤ - قراءة جديدة للحرب الباردة . دار المعارف .

٥ - الدبلوماسية المعاصرة . عالم الكتب .

٦ - من الحرب الباردة الى البحث عن نظام دولى جديد (الهيئة العامة للكتاب) .

٧ - العلاقات الأمريكية / المصرية ١٩٤٦ - ١٩٥٦ (مترجم) .

نشر العديد من الدراسات والمقالات فى المجلات والدوريات المتخصصة فى مصر والخارج ، كما شارك فى ندوات ومؤتمرات مصرية واجنبية ، وحاضر فى : معهد الدراسات الدبلوماسية ، وأكاديمية ناصر للعلوم العسكرية ، وكلية الاقتصاد والعلوم السياسية .

اقرأ في هذه السلسلة

برتراند رسل
أحلام الأعلام وقصص أخرى

ى· رادو نكايام جابرتنسكى
الالكترونيات والحياة الحديثة

ألدس هكسلي
نقطة مقابل نقطة

ت· و· فريمان
الجغرافيا فى مائة عام

رايموند وليامز
الثقافة والمجتمع

ر· ج· فوربس و أ· ج· ديكستر هور
تاريخ العلم والتكنولوجيا
٢ ج

ليستر ديل راى
الأرض الغامضة

والتر آلن
الرواية الانجليزية

لويس فارجاس
المرشد الى فن المسرح

فرانسوا دوماس
آلهة مصر

قدرى حفنى وآخرون
الانسان المصرى على الشاشة

اولج فولكف
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة

هاشم النحاس
الهوية القومية فى السينما

ديفيد وليام ماكدوال
مجموعات النقود · صيانتها تصنيفها — عرضها

عزيز الشوان
الموسيقى تعبير نغمى ومنطق

د· محسن جاسم الموسوى
عصر الرواية

ديلان توماس
مجموعة مقالات نقدية

جون لويس
الانسان ذلك الكائن الفريد

جول ويست
الرواية الحديثة · الانجليزية والفرنسية

د· عبد المعطى شعراوى
المسرح المصرى المعاصر
أصله وبدايته

انور المعداوى
على محمود طه الشاعر والانسان

بيل شول وادبنيت
القوة النفسية للأهرام

د· صفاء خلوصى
فن الترجمة

رالف ئى ماتلو
تولستوى

فكيتور برومبير
ستندال

فيكتور هوجو
رسائل وأحاديث من المنفى

فيرنر هيزنبرج
الجزء والكل « محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية »

سدنى هوك
التراث الغامض · ماركس والماركسيون

ف· ع· أدينكوف
فن الأدب الروائى عند تولستوى

هادى نعمان الهيتى
أدب الأطفال « فلسفته ، فنونه ، وسائطه »

د· نعمة رحيم العزاوى
أحمد حسن الزيات كاتبا وناقدا

د· فاضل أحمد الطائى
أعلام العرب فى الكيمياء

جلال العشرى
فكرة المسرح

هنرى باربوس
الجحيم

د· السيد عليوة
صنع القرار السياسى فى منظمات الادارة العامة

جاكوب برونوفسكى
التطور الحضارى للانسان

د· روجر ستروجان
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال ؟

كاتى ثير
تربية الدواجن

أ· سبنسر
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة

د· ناعوم بيتروفيتش
النحل والطب

جوزيف داهموس
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى

د· لينوار تشامبرز رايت
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر

د· جون شندلر
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة

بيير البير
الصحافة

د· غبريال وهبة
أثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى

د· رمسيس عوض
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها

د· محمد نعمان جلال
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير

فرانكلين ل· باومر
الفكر الأوربى الحديث ٤ ج

شوكت الربيعى
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى

د· محى الدين أحمد حسين
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار

ج· داملى اندرو
نظريات الفيلم الكبرى

جوزيف كونراد
مختارات من الأدب القصصى

د· جوهان دورشنر
الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد

طائفة من العلماء الأمريكيين
مبادرة الدفاع الاستراتيجى حرب الفضاء

د· السيد عليوة
ادارة الصراعات الدولية

د· مصطفى عنانى
الميكروكمبيوتر

مجموعة من الكتاب اليابانيين القدماء والمحدثين
مختارات من الأدب اليابانى
« الشعر — الدراما — الحكاية — القصة القصيرة »

جابرييل باير
تاريخ ملكية الأراضي في مصر الحديثة

انطوني دي كرسبني وكينيث مينوج
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة

دوايت سوين
كتابة السيناريو للسينما

زافيلسكي ف. س
الزمن وقياسه (من جزء من البليون جزء من الثانية وحتى مليارات السنين)

مهندس ابراهيم القرضاوي
اجهزة تكييف الهواء

بيتر رداي
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعي

جوزيف داهموس
سبعة مؤرخين في العصور الوسطى

س. م. بورا
التجربة اليونانية

د. عاصم محمد رزق
مراكز الصناعة في مصر الاسلامية

رونالد د. سمبسون ونورمان د. اندرسون
العلم والطلاب والمدارس

د. انور عبد الملك
الشارع المصري والفكر

والت ويتمان روستو
حوار حول التنمية الاقتصادية

فرد. س. هيس
تبسيط الكيمياء

جون لويس بوركهارت
العادات والتقاليد المصرية من الامثال الشعبية في عهد محمد علي

الان كاسبيار
التذوق السينمائي

سامي عبد المعطي
التخطيط السياحي في مصر بين النظرية والتطبيق

فريد هويل وشاندرا ويكراما سينج
البذور الكونية

حسين حلمي المهندس
دراما الشاشة (بين النظرية والتطبيق) للسينما والتليفزيون ٢ ج

روى روبرتسون
الهيروين والايدز واثرهما في المجتمع

دور كاس ماكلينتوك
صور افريقية . نظرة على حيوانات افريقيا

هاشم النحاس
نجيب محفوظ على الشاشة

د. محمود سري طه
الكمبيوتر في مجالات الحياة

بيتر لوري
المخدرات حقائق نفسية

بوريس فيدروفيتش سيرجيف
وظائف الاعضاء في الالف الياء

ويليام بينز
الهندسة الوراثية للجميع

ديفيد الدرتون
تربية اسماك الزينة

احمد محمد الشنواني
كتب غيرت الفكر الانساني

جون . ر. بورر وميلتون جولدينجر
الفلسفة وقضايا العصر ٣ ج

ارنولد توينبي
الفكر التاريخي عند الاغريق

د. صالح رضا
ملامح وقضايا في الفن التشكيلي المعاصر

م. هـ كنج وآخرون
التغذية في البلدان النامية

جورج جاموف
بداية بلا نهاية

د. السيد طه السيد ابو سديرة
الحرف والصناعات في مصر الاسلامية منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي

جاليليو جاليليه
حوار حول النظامين الرئيسيين للكون ٣ ج

اريك موريس والان هو
الارهاب

سيرل الدريد
اخناتون

ارثر كيستلر
القبيلة الثالثة عشرة ويهود اليوم

ب. كوملان
الاساطير الافريقية والرومانية

د. توماس ا. هاريس
التوافق النفسي - تحليل المعاملات الانسانية

لجنة الترجمة ، المجلس الاعلى للثقافة
الدليل البيليوجرافي روائع الاداب العالمية ج ١

روى آرمز
لغة الصورة في السينما المعاصرة

ناجاي متشيو
الثورة الاصلاحية في اليابان

بول هاريسون
العالم الثالث غدا

ميكائيل البي وجيمس لفلوك
الانقراض الكبير

آدامز فيليب
دليل تنظيم المتاحف

فيكتور مورجان
تاريخ النقود

محمد كمال اسماعيل
التحليل والتوزيع الاوركسترالي

ابو القاسم الفردوسي
الشاهنامة ٢ ج

بيرتون بورتر
الحياة الكريمة ٢ ج

جاك كرابس جونيور
كتابة التاريخ في مصر القرن التاسع عشر

محمد فؤاد كوبريلي
قيام الدولة العثمانية

توني بار
التمثيل للسينما والتليفزيون

تاجور ، شين بن بنج وآخرون
مختارات من الآداب الاسيوية

ناصر خسرو علوي
سفرنامة

نادين جورديمر وجريس اوجوت وآخرون
سقوط المطر وقصص اخرى

احمد محمد الشنواني
كتب غيرت الفكر الانساني ٧ ج

جان لويس بوري وآخرون
في النقد السينمائي الفرنسي

العثمانيون في اوروبا
بول كولز

موريس بير برايز
صناع الخلود

زيجمونت هبز
جماليات فن الاخراج

جوناثان ريلى سميث
الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية

الفريد ج. بتلر
الكنائس القبطية القديمة فى مصر ٢ ج

ريتشارد شاخت
رواد الفلسفة الحديثة

ترانيم زرادشت
من كتاب الأفستا المقدس

الحاج يونس المصرى
رحلات فارتيما

هربرت شيلر
الاتصال والهيمنة الثقافية

برتراند راسل
السلطة والفرد

بيتر نيكوللز
السينما الخيالية

ادوارد ميرى
عن النقد السينمائى الأمريكى

نفتالى لويس
مصر الرومانية

ستيفن اوزمنت
التاريخ من شتى جوانبه ٣ ج

مونى براح وآخرون
السينما العربية من الخليج الى المحيط

فانس بكارد
الهم يصنعون البشر ٢ ج

جابر محمد الجزار
ماستريخت

د. ابرار كريم الله
من هم التتار

ج. س. فريزر
الكاتب الحديث وعالمه ٢ ج

سوريال عبد الملك
حديث النهر
من روائع الآداب الهندية

لوريتو تود
مدخل الى علم اللغة

اسحق عظيموف
الشموس المتفجرة
أسرار السوبر نوفا

مارجريت روز
ما بعد الحداثة

د. بيارد دودج
الأزهر فى الف عام

ستيفن رانسيمان
الحملات الصليبية

هـ. ج. ولز
معالم تاريخ الانسانية ٤ ج

جوستاف جرونيباوم
حضارة الاسلام

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ
رحلة بيرتون الى مصر والحجاز ٣ ج

جلال عبد الفتاح
الكون ذلك المجهول

ارنولد جزل وآخرون
الطفل من الخامسة الى العاشرة ٢ ج

بادى اونيمود
افريقيا ــ الطريق الآخر

د. محمد زينهم
فن الزجاج

برنسلاو مالينوفسكى
السحر والعلم والدين

آدم متز
الحضارة الاسلامية

فانس بكارد
الهم يصنعون البشر

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ
يوميات رحلة فاسكو داجاما

ايفرى شاتزمان
كوننا المتمدد

سونداري
الفلسفة الجوهرية

مارتن فان كريفلد
حرب المستقبل

فرانسيس ج. برجين
الاعلام التطبيقى

عبده مباشر
البحرية المصرية من محمد على للسادات

ج. كارفيل
تبسيط المفاهيم الهندسية

توماس ليبهارت
فن المايم والبانتوميم

ادوارد دوبونو
التفكير المتجدد

ويليام هـ. ماثيوز
ما هى الجيولوجيا

كريستيان ساليه
السيناريو فى السينما الفرنسية

بول وارن
خفايا نظام النجم الأمريكى

جورج ستاينر
بين تولستوى ودوستويفسكى ٢ ج

يانكو لافرين
الرومانتيكية والواقعية

محمود سامى عطا الله
الفيلم التسجيلى

جوزيف بتس
رحلة جوزيف بتس

ستانلى جيه سولومون
انواع الفيلم الأمريكى

مارى ب. ناش
السمر والبيض والسود

جوزيف م. بوجز
فن الفرجة على الأفلام

كريستيان ديروش نوبلكور
المرأة الفرعونية

جوزيف يندهام
موجز تاريخ العلم والحضارة فى الصين

ليوناردو دافنشى
نظرية التصوير

ت. ج. هـ. جيمز
كنوز الفراعنة

رودولف فون هابسبرج
رحلة الأمير ردولف الى الشرق ٣ ج

مالكوم برادبرى
الرواية اليوم

وليم مارسدن
رحلة ماركو بولو ٣ ج

هنرى بيرين
تاريخ اوربا فى العصور الوسطى

ديفيد شنيدر
نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر

اسحق عظيموف
العلم وآفاق المستقبل

رونالد دافيد لانج
الحكمة والجنون والحماقة

كارل بوبر
بحثا عن عالم أفضل

نورمان كلارك
الاقتصاد السياسى للعلم والتكنولوجيا

السيد نصر الدين السيد
اطلالات على الزمن الآتى

ممدوح عطية
البرنامج النووى الاسرائيلى
والأمن القومى العربى)

د. ليوبوسكاليا
الحب

ايفور ايفانس
مجمل تاريخ الادب الانجليزى

هيربرت ريد
التربية عن طريق الفن

وليام بينز
معجم التكنولوجيا الحيوية

الفين توفلر
تحول السلطة ٢ ج

يوسف شراوة
مشكلات القرن الحادى والعشرين
والعلاقات الدولية

رولاند جاكسون
الكيمياء فى خدمة الانسان

ت. ج. جيمز
الحياة أيام الفراعنة

جرج كاشمان
لماذا تنشب الحروب ٢ ج

حسام الدين زكريا
انطون بروكنر

ازرا ف. فوجل
المعجزة اليابانية

ونفرد هولز
كانت ملكة على مصر

جيمس هنرى برستد
تاريخ مصر

بول دافيز
الدقائق الثلاث الأخيرة

جوزيف وهارى فيلدمان
ديناميه الفيلم

ج. كونتنو
الحضارة الفينيقية

رنست كاسيرر
فى المعرفة التاريخية

كنت أ. كتشن
رمسيس الثانى

جان بول سارتر وأخرون
مختارات من المسرح العالمى

روزالند وجاك يانسن
الطفل المصرى القديم

نيكولاس ماير
شرلوك هولمز

ميجيل دى ليبس
الفئران

جوسيبى دى لونا
موسولينى

الويز جرايتر
موتسارت

على عبد الرءوف البمبى
مختارات من الشعر الاسبانى

روبرت سكولز وأخرون
افاق ادب الخيال العلمى

ب. س. ديفيز
المفهوم الحديث للمكان والزمان

س. هوارد
شهر الرحلات الى غرب افريقيا

و. بارتولد
تاريخ الترك فى آسيا الوسطى

فلاديمير تيمانيانو
تاريخ اوربا الشرقية

جابرييل جارسيا ماركيز
الجنرال فى المتاهة

هنرى برجسون
الضحك

مصطفى محمود سليمان
الزلزال

م. و. ثرنج
ضمير المهندس

ا. ر. جرنى
الحيثيون

سبتينو موسكاتى
الحضارات السامية

د. البرت حورانى
تاريخ الشعوب العربية

محمود قاسم
الأدب العربى المكتوب بالفرنسية

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٧/٥٣٦٣

ISBN — 977 — 01 — 5194 — 7